سُورَةُ فُصِّلَتْ

مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ②﴾.

﴿حمٓ * تَنزِيلٌ﴾ المراد به المنزَّل، والتعبير عن المفعول بالمصدر، مجاز مشهور، يقال: هذا الدرهم ضربُ السلطان أي مضروبه، أي هذا القرآن العظيم منزَّل ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته الأكوان، وعمَّ فضله جميع الخلق من إنس وجان، ونسبة التنزيل إلى «الرحمن الرحيم» للإيذان بأنه محقق للمصالح الدينية، والدنيوية، وواقع بمقتضى الرحمة الربانية، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أرسَلْنَاكَ إلاَّ رحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ يعني أنه كتاب منزلٌ من ربّ العزَّة والجلال، يمقتضىٰ رحمته للعباد.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③﴾.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي ميزت بحسب النظم والمعنى، في أساليب مختلفة، ومعان متغايرة، من أحكام، وقصص، ومواعظ، وأمثال، ووعد، ووعيد، وبالجملة فمن أنصف، علم أنه ليس في بدء الخلق، كتاب اجتمع

فيه من العلوم المختلفة، مثل ما في القرآن الكريم ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلسان العرب قرآناً عربياً، واضحاً جلياً، معجزاً في فصاحته وبيانه ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معانيه لكونه على لسانهم، وقيل: لأهل العلم لأنهم هم المنتفعون به.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿بَشِيرًا﴾ لأهل الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأهل المعصية ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره مع كونه على لغتهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفكر وتأمل، حتى يفهموا جلالة قدره، فيؤمنوا به.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ لرسول الله ﷺ عند دعوته إياهم إلى الإيمان، والقرآن ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي أغطية متكاثفة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صمم، وأصله الثقل ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل، وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن إدارك الحقّ وقبوله ﴿فَاعْمَلْ﴾ أي على دينك، وفي إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أي مستمرون على ديننا، وقيل: في إبطال أمرك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ تلقينٌ للجواب عنه ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي لستُ من جنس مغايرٍ لكم، حتى يكون بيني وبينكم حجاب وتباين، بل إنما أنا

بشر مثلكم مأمور بما أُمرتم به ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد، جامع بيني وبينكم، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ تعالى بالتوحيد، والإخلاص في العمل ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما كنتم عليه من سوء العقيدة، وسوء العمل ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك، إثر ترغيبهم في التوحيد، والاستقامة في العمل.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي هلاك ودمار للمشركين، وَصَفهم بذلك لزيادة التحذير عن منع الزكاة، حيث جعل من أوصاف المشركين أنهم لا يؤتون الزكاة، وقيل معناه: لا يفعلون ما يزكِّي أنفسهم، وهو الإيمانُ، والطاعة.

وسعادة الإنسان مربوطة بأمرين: ١ ـ التعظيم لأمر الله. ٢ ـ والشفقة على خلق الله.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي وهم منكرون للآخرة، جاحدون للقاء الله، لا يؤمنون بالبعث والنشور. أثبت تعالى الويل، لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة.

١ ـ أن يكون مشركاً وهو ضد التوحيد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وويلٌ للمشركين﴾.

٢ ـ كونه ممتنعاً من الزكاة، وهو ضد الشفقة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾.

٣ ـ كونه منكراً للقيامة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وإذا كان الإنسان في هذه المراتب الثلاثة؛ كان في نهاية الجهل والضلالة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لا يمنُّ به عليهم، لأنه تعالى لمَّا سمَّاه أجراً، فإن الأجر لا يوجب المنة، وقيل: ﴿غير ممنون﴾ أي دائم غير مقطوع، ومن إكرام الله للمؤمن، أنه إذا مرض، أو عجز عن الطاعة، كتب له أجره كاملاً، لما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان العبد يعمل عملاً صالحاً، فشغله عنه مرضٌ، أو سفر، كَتبَ الله تعالى له كصالح ما كان يعمل، وهو صحيح مقيم»[1].

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إنكار وتشنيع لكفرهم، و «إن»، و «اللام» لتأكيد الإنكار، وإنما علق كفرهم بالموصول حيث قيل: ﴿بالذي خلق الأرض﴾ لتعظيم شأنه تعالى، واستعظام كفرهم، والتعجيب منه، فكأنه يقول منْ قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة، كيف يُعقل الكفر به، وإنكار قدرته على الحشر، وبعثة الأنبياء؟ وكيف يُعْقل جعلُ هذه الأصنام الخسيسَة نِدّاً له؟ وقوله تعالى: ﴿في يومين﴾ أي حكم وقدَّر بأنها ستوجد في مقدار يومين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي وتجعلون له أنداداً، والحال أنه لا يمكن أن يكون له ندٌّ واحد ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك العظيم الشأن، الذي فعل ما ذكر ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي خالق جميع الموجودات.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ٩٥ وأبو داود في الجنائز رقم ٣٠٩١.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي كائنة من فوقها، وهي الجبال، مرتفعة عليها، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، وكلها مفتقرة إلى خالق، وحافظ، وما ذاك إلا الله رب العالمين ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي قدَّر أن يكثر خيرها، بأن يخلق أنواع الحيوانات، وأصناف النباتات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ أي حكم بالفعل بأن يوجد لأهلها، من الأنواع المختلفة، أقواتها المناسبة لها، على مقدارٍ معيَّن، تقتضيه الحكمة ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي قدَّر حصول الأمور المذكورة في الأرض في يومين، فصار مع اليومين الأولين في أربعة أيام ﴿سَوَآءً﴾ أي تلك الأيام الأربعة، أيام كاملة مستوية، لا زيادة فيها ولا نقصان ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي لأجل من سأل، في كم خُلقت الأرض وما فيها؟.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ شروع في كيفية التكوين، إثر بيان كيفية التقدير، ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها، لاعتنائه تعالى بأمر المخاطبين، وترتيب معاشهم، قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان، ويزجرهم عن الكفر، ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي دخان مرتفع من الماء وهو بخار الماء المتصاعد من الأرض حين خُلقت، كما ذكره الحافظ ابن كثير ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ التي قدر وجودها، ووجود ما فيها ﴿ٱئْتِيَا﴾ أي كونا على وجه معين، وفي وقت مقدر، أو استجيبا لأمري طائعَتْين أو كارهتين، ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما، واستحالة امتناعهما من ذلك أي طائعتين أو كارهتَين، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي منقادين، تمثيل لكمال تأثرهما بالذات وحصولهما كما أُمرتا به[1].

---

(١) لنقف وقفةً قصيرة عند هذا التعبير المعجز، فإنَّ فيه سراً عجيباً، يفوق الخيالَ في =

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ تفصيل لتكوين السماء المجمل، أي خلقهن خلقاً محكماً، وأتقن أمرهنَّ، حسبما تقتضيه الحكمة ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي في وقتٍ مقدَّر بيومين، فكان خلق الكل في ستة أيام، حسبما نصَّ عليه في مواضع من التنزيل ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي خلق في كل منها من الملائكة والنيرات، وغير ذلك، مما لا يعلمه إلا الله تعالى، وأوحى إلى كل منها ما يليق بها من التكليف ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ من الكواكب، فإنها ترى متلألئة عليها، كأنها فيها، والالتفات إلى نون العظمة للاعتناء بالأمر ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها من الآفات، أو من المسترقة للسمع حفظاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ المبالغ في القدرة والعلم، وما أحسن هذه الخاتمة، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة تامة، وعلم محيط.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾.

= روعة الجمال، فالآية الكريمة، تشير إلى انقياد هذا الكون إلى خالقه ومبدعه، انقياد العبد لسيده، والجندي لقائده، وقد عبَّر عن هذه الطاعة والاستسلام، بتمثيل رائع بديع، يجعل من الجماد وكأنه إنسان عاقل، يؤمر فيلبي الأمر، ويُكلف بشيء فيسمع ويطيع، على حدِّ قول العرب: «قال الحائط للمسمار لِمَ تشقّني؟ قال: سلْ من يدقني» والغرضُ من الآية هنا، تصوير نفوذ قدرته سبحانه في المخلوقات، بصورة العبد المطيع، الذي لا يقوى على مخالفة أمر سيده، فكلُّ ما في الكون من شمسٍ، وقمر، ونجوم، وجبال، وبحار، وأنهار.. إلى آخره مستسلمٌ لأمر الله، منقادٌ لحكمه وتدبيره، ويمكن أن يخلق الله في السموات والأرض القدرة على الكلام والجواب، إن حملنا اللفظ على الحقيقة لا على المجاز، لأن الله على كل شيء قدير، فكما أنطق الإنسان ينطق الجماد والحيوان!.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي عذاباً هائلاً، شديد الوقع، كأنه صاعقة، مثل صاعقة عاد وثمود.

﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ﴾ أي حين جاءتهم الرسل يدعونهم إلى الايمان، ويخوفونهم من الكفر والإشراك ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي من جميع جوانبهم، واجتهدوا بهم من كل جهة، من جهات الإرشاد والنصيحة، تارة بالرفق، وتارة بالعنف، وتارة بالتشويق، وأخرى بالترهيب، والتحذير عما سيحيق بهم، من عذاب الدنيا والآخرة ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا ﴾ أي إرسال الرسل ﴿ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ أي لأرسلهم، بدلكم، فآمنا بهم، وأنتم بشر مثلنا، فكيف نصدِّق أن الله أرسلكم؟ ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴾ على زعمكم، وفيه ضرب تهكم بهم ﴿ كَافِرُونَ ﴾ لا نؤمن بكم ولا بما جئتم به.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ ﴾ شروع في حكاية ما يخصُّ كلَّ واحدة من الطائفتين، من الجناية والعذاب، أي فأما قبيلة عاد الطغاة الفجرة ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي فتعظَّموا فيها على أهلها، بغير استحقاق للتعظيم والولاية ﴿ وَقَالُوا ﴾ معتزين بشدتهم وقوتهم، ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾؟ وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام، وشدة القوة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي أغفلوا، ولم ينظروا، ولم

يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي قدرة، فإنه تعالى قادر بالذات قوي على ما لا يقدر عليه غيره، ومفيض القوى على الغير ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي أنكروها وهم يعرفون حقيقتها، كما ينكر الإنسان الوديعة، فجمعوا بين الاستكبار وبين الإنكار، فكانوا فسقة كفرة [1].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي باردة تهلك، من الصِرِّ وهو البرد، أي تهلك من شدة بردها، أو شديدة الصوت، تصوِّت في هبوبها، من من الصرير، قيل: إنها الدبور ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ مشؤومات غير مباركات، جمع

---

(١) روي أن أبا جهل قال ذات يوم في ملأٍ من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فأتانا بخبره، فقال «عتبة بن ربيعة»: والله ما يخفى عليَّ شيء من هذه، فأرسلوني إليه فأنا آتيكم بحقيقة أمره، فأرسلوه فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فبم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ فإن كنت بما جئت به تريد الرئاسة، عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد النساء زوجناك عشر نسوة من أجمل بنات قريش ـ ورسول الله ﷺ ساكت ـ فلما فرغ عتبة قال له عليه السلام: أفرغتَ يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ ﴿حمٓ. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته...﴾ إلى قوله: ﴿فإن تولوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فم النبي ﷺ وأنشده الرحم أن يكف عما يقول، فقد خاف على نفسه الهلاك، ولم يرجع إلى قومه وهم ينتظرون خبره، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ ـ أي دخل في دين محمد ـ فجاؤوا إلى منزله وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا؟ فقال: والله لقد كلمته فسمعت منه كلاماً ما هو بشعر، ولا سحر، ولا كهانة، فناشدته الرحم أن يكف، وتعلمون أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب!!.

نحسة من نَحِس نَحْساً، نقيض سَعِد سَعْداً قيل: كن آخر شوال من يوم الأربعاء ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو الذل والاستكانة، لأنهم استكبروا، فقابلهم الله تعالى بالخزي والهوان، والذل والصَّغار ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو في الحقيقة وصف للمعذَّب، وقد وصف به العذابُ للمبالغة ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فدللناهم على الحق، بنصب الآيات التكوينية، وإرسال الرسل ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الضلالة على الهدى ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ الهُون: الهَوَانُ، وصف به العذاب مبالغة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ باختيارهم الضلالة على الهدى.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وهم صالح عليه السلام ومن آمن من قومه، من تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ التعبير عنهم بأعداء الله، لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم، من ألوان العذاب، والمراد من النار موقف الحساب، إذ هناك تتحقق الشهادة الآتية، والتعبير عنه بالنار، للإيذان بأنها عاقبة حشرهم، وأنهم على شرف دخولها ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا، ثم يساقون إلى جهنم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ إذا حضروها، وشاهدوا أهوالها وسعيرها ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والعصيان، بأن ينطقها الله تعالى، وعن ابن عباس المراد بشهادة الجلود: شهادة الفروج، وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمۡ﴾ فإنَّ ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً، وأجلب للخزي مما يشهد به السمع والبصر.

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾.

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ أي أنطق كل ناطق، وأقدرنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فإن من خلقكم أولاً وأعادكم ثانياً، لا يُتعجب من إنطاقه لجوارحكم، وينبغي أن يعلم المؤمن، أن عليه من جوارحه رقيباً، يشهد عليه يوم القيامة.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢﴾.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ﴾ أي يقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع: ما كنتم تستخفون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش، مخافة ﴿أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ بذلك، كما كنتم تستخفون من الناس مخافة الافتضاح عندهم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ

﴿ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من القبائح المخفية، فلا يظهرها في الآخرة، ولذا اجترأتم على ما فعلتم.

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾.

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ أي أهلككم وأذلكم ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ بسبب ذلك الظن السوء ﴿مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي من الذين خسروا سعادتهم وأهليهم، وذلك تمام الخسران والشقاء.

﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾.

﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ أي محل سكن وإقامة، ومنزل دائم لهم في جهنم ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾ أي يسألوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبونه من إرضاء الله عزَّ وجل ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ أي المجابين إليها المرضيِّ عنهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾[1] يعني أنهم إذا أرادوا أن يرضوا ربهم، فما هم من المجابين إلى ذلك فقد مضت الدنيا دار التكليف والابتلاء، وقبول الاعتذار.

﴿۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥﴾.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢١.

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا﴾ أي هيأنا ويسَّرنا ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة في الدنيا ﴿قُرَنَآءَ﴾ جمع قرين أي أخداناً من الشياطين، يستولون عليهم استيلاء المالك لعبده ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمور الدنيا، واتباع الشهوات ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمور الآخرة، حيث أخبروهم أن لا بعث ولا حساب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[1] ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب، وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي كائنين في جملة أمم، من الأشقياء المجرمين ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضتْ ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ على الكفر والعصيان، كدأب هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير للفريقين.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم، أو قال بعضهم لبعض ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ لأنهم علموا أن القرآن كلام بليغ مؤثّر، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط فهمه بمعانيه، وقضى عقله بأنه كلام حق، فدبَّروا مكيدة لمنع الناس عن استماعه ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي ارفعوا أصواتكم عند قراءته لتشوشوا على القارىء ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبونه على دينه، قال ابن عباس: «قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول».

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ لا يقادر قدره ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم، وعن ابن عباس: عذاباً شديداً في الدنيا، وأسوأ العذاب في الآخرة.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر، أسوأ الجزاء ﴿ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ﴾ أي جزاءٌ معدٌّ لأعدائه ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ هو نار جهنم، وهو عطف بيان للجزاء ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾ أي لهم في النار، دار مخصوصة هم فيها خالدون ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا، ويلغون فيها.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ يعنون فريقي الشياطين، الحاملين لهم على الكفر والمعاصي من الإنس والجن، والشياطين على ضربين: جنّي، وإنسي، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ﴾[1] ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي ندوسهما بالأقدام انتقاماً منهما وتشفياً ﴿ لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أي ذلاً ومهانة، جزاء إضلالهم إيانا.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١١٢.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي قالوه اعترافاً بربوبيته، وإقراراً بوحدانيته ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ أي ثبتوا على الإقرار ومقتضياته، واستقاموا على توحيد الله وطاعته. واعلم أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين: العلمِ اليقيني، والعملِ الصالح، ورأسُ المعارف اليقينية ورئيسُها: معرفةُ الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله﴾ ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيماً، غير مائل نحو الإفراط والتفريط، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثم استقاموا﴾ وكان الحسن البصري رحمه الله إذا تلا هذه الآية، قال: «اللهمَّ أنت ربنا فارزقنا الاستقامة» ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ من جهته تعالى بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام، كما أن الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء، بتزيين القبائح، وقيل: تتنزل عند الموت بالبشرى، وإذا قاموا من قبورهم، والأظهر العموم ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ أي إن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم، فلن تذوقوه أبداً ﴿ وَأَبْشِرُواْ ﴾ أي سروا ﴿ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل، وهذا من بشاراتهم عند الموت، والقبر، والبعث، وللملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية، بالإلهامات والمكاشفات، كما أن للشياطين تأثيرات بإلقاء الوساوس، وولايةُ الملائكة باقية تصير بعد الموت أقوى وأبقى، لأن جوهر النفس من جنس الملائكة، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس.

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أعوانكم في أموركم، نلهمكم الحق، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم في الدنيا، ولعل ذلك عبارة عما

يخطر ببال المؤمنين، المستمرين على الطاعة ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ نمدكم بالشفاعة، ونتلقاكم بالكرامة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من فنون الطيبات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تتمنون من أنواع اللذائذ والشهوات، وما تطلبه نفوسكم من كل ما يخطر ببالكم.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب العزة والجلال، وما يعطونه مما لا يخطر ببالهم، كالنزل للضيف، فما ظنك بما بعده من الألطاف؟.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى توحيده وطاعته، بقوله وفعله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ابتهاجاً بأنه منهم، واتخاذ الإسلام ديناً له.

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ﴾ أي لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة، في الآثار، والأحكام، والعاقبة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، كالإحسان إلى من أساء، فإنه أحسن من العفو ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي إذا فعلت ذلك، هنا صار عدوُّك المشاق، مثل الولي الشفيق، قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان عدواً فصار ولياً بالمصاهرة، واللفظ يقتضي العموم.

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي هذه الخصلة، التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أي على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ، ونحو ذلك ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الخير، وكمال النفس.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ أي وإن صرفك الشيطان عما وُصِّيت به، من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ ﴾ من شره ولا تطعه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ باستعاذتك ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنيتك وأفعالك.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ﴾ الدالة على شؤونه العظيمة ﴿ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ ﴾ كل منها مخلوق من مخلوقاته، مسخَّرٌ لأمره ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما من مخلوقاته مثلكم، وإنما قال ذلك، لأن أناساً يسجدون لهما ويعبدونهما من دون الله، وهم عُبَّاد الشمس ﴿ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ الضمير للأربعة، أي واسجدوا للخالق الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادات، فلا بد من تخصيصه به سبحانه.

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الامتثال بالأمر ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي دائماً ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ أي لا يفترون ولا يملون.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾ أي يابسة، مستعارٌ من الخشوع وهو التذلل ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ﴾ أي تحركت بالنبات، وقيل: تزخرفت ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بما ذكر بعد موتها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ﴾ بالبعث ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإحياء ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة، لا يُعجزه شيءٌ من الأرض ولا في السماء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة، فالملحد هو المنحرف، وفي العرف اختص بالمنحرف عن الحقّ إلى الباطل، والمنحرف عن الدين ﴿فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ بالطعن فيها، والتحريف، والتأويل الباطل ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ﴾ أي لا يغيب أمرهم عنَّا، وهو تهديد فيجازيهم بإلحادهم ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾ الاستفهام بمعنى التقرير ﴿أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ من الأعمال المؤدية إلى الإلقاء في النار، وفيه تهديد شديد ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ﴾ أي كذبوا بالقرآن لأول وهلة، دون

أن يفكرّوا في آياته وإعجازه، وخبر «إن» محذوف للتهويل، كأنه قال: سيجازون جزاءً لا يكاد يوصف لشدته وهوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي كثير المنافع، عديم النظير، منيع لا تتأتى معارضته.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات، وقيل: معنى (الباطل) الزيادةُ أو النقصان ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هو منزَّل من إله حكيمٍ في تشريعه، حميد أي محمود من عباده وخلقه، مستحق للحمد والثناء.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ تسلية للرسول ﷺ عما يصيبه من أذية الكفار، أي ما يُقال في شأنك وشأن ما أُنزل إليك، إلا مثل ما قد قيل في حق الرسل من قبلك، مما لا خير فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائه وأوليائه المؤمنين ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم، ففوِّضْ أمرك إليه، فإنه ينتقم لك منهم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم، لكان لهم أن يقولوا: كيف أنزلت الكلام العجمي إلى القوم العرب؟ أما لمّا أنزلناه بلغة العرب وهم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنكم ادعاء أن

قلوبكم في أكنة، وفي آذانكم وقر؟ ﴿لَقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي هلاّ بينت آياته بلسان نفقهه؟ ﴿ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾؟ والمعنى: أكلام أعجمي، والرسول عربي؟ أو المرسل إليه عربي؟ فالمقصود بيان أن آيات الله تعالى على أي وجه جاءتهم، وجدوا فيها متعنتاً وطعناً يتعلّلون به ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنَّ هذا القرآن هادٍ للمؤمنين، يهديهم إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، وشفاء لهم من داء الجهل والضلالة، وكلُّ من آتاه الله تعالى طبعاً مائلاً إلى الحق، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين، فإن القرآن يكون في حقه هدى وشفاء، أما كونه هدى فلأنه دليل على الخير، ويرشد إلى كل السعادات، وأما كونه شفاء فإنه شفاء له من مرض الكفر والجهل، وأما من كان في بحر الخذلان، وتائهاً في مفاوز الحرمان، ومشغوفاً بمتابعة الشيطان، كان هذا القرآن في آذانه وقراً، وعليه عمى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي ظلمة وشبهة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ البعداء الموصوفون بما ذكر ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ هذا تمثيل لهم في عدم استماعهم له، بمن ينادي من مسافة نائية، لا تُكادُ تُسْمَعُ من مثلها الأصوات.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ﴾ تسلية للرسول ﷺ ببيان أن الاختلاف في شأن الكتب، عادة قديمة للأمم، غير مختص بها قومك، أي وبالله لقد آتينا التوراة لموسى، فاختلف فيها، وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في أمتك المكذبة، وهي الوعد بتأخير عذابهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذبين، كما فعل بمكذبي الأمم السالفة

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي كفار قومك ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع لهم في الشك والاضطراب.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ فنفعُ عمله لنفسه، لا لغيره ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ ضرره لا على غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله بتنزيل ترك إثابة المحسن، وتعذيبه بغير إساءة، منزلة الظلم، وما كان الله ليعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يؤاخذه إلاَّ بجرمه، لأنه منزه عن الظلم.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ﴾ أي إليه سبحانه وحده، معرفة وقت القيامة، لا يعلمها إلا الله جل وعلا ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي من أوعيتها جمع كِمٍّ بالكسر، وهو وعاءُ الثمرة، والجمع لاختلاف الأنواع ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ حملها وجنينها في بطنها ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي تلد حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾ أي ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع، ملابساً بشيءٍ من الأشياء، إلا ملابساً بعلمه المحيط، أي يعلم سبحانه بجزئياته، مثلاً عدد أيام الحمل، وساعاته، وأحواله من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، ونحو ذلك، فإن قيل: أليس إن المنجمين قد يتعرفون كثيراً من أحوال العالم؟ قلنا إن أصحاب هذه العلوم، لا يمكنهم القطع، وإنما هم يظنون، والمذكور في هذه الآية الجزمُ واليقين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي بزعمكم، كما نص في قوله تعالى: ﴿أين

شركائي الذين زعمتم﴾ وفيه تهكُّمٌ بهم ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّكَ﴾ أي أخبرناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي من أحد يشهد لهم بالشركة، إذ تبرأنا منهم، لمَّا عاينا الحال، وما منا أحدٌ إلاَّ وهو موحِّدٌ لك.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ أي يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّواْ﴾ أي أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي مهرب.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ أي لا يملُّ ولا يفتر ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي الكافر، بدليل قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي من طلب السعة في النعمة، وأسباب المعيشة الهنيئة ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي العسر والضيق ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ وهذا وصف للجنس بوصف غالب أفراده، واليأسُ من رحمة الله كفر.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ بتفريجها عنه ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أي حقي أستحقه، لما لي من الفضل والعمل ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي تقوم فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ على تقدير قيامها ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ أي للحالة الحسنى من الكرامة، وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له، وأن نعم الآخرة كذلك ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقية ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يقادر قدره، ولا يُبلغ كنهه.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ ﴾ عن الشكر ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ أي ذهب بنفسه، وتباعد بكليته، تكبراً وتعظماً، والجانب مجاز عن النفس، ويجوز أن يراد به ثنى عِطْفه ويكون عبارة عن الغطرسة والكبرياء ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ أي كثير، مستعار مما له عرضٌ متسع، للإشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ من الطويل، إذ الطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله؟.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾؟ أي من أضل منكم؟ وضع الموصول موضع الضمير، تعليلاً لمزيد ضلالهم.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ الدالة على حقيته وكونه من عند الله ﴿ فِى ٱلْـَٔافَاقِ ﴾ هو ما أخبرهم به الرسول ﷺ من الحوادث الآتية، وآثار النوازل الماضية، وما يسَّره الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح، والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب، على وجه خارق للعادة فإن قيل: إن استيلاء بعض البلاد، لا يدل على كون المستولي محقاً؟ قلنا: إنا لا نستدل بمجرد الاستيلاء، بل نستدل به من حيث إنه ﷺ أخبر، فهذا إخبار

عن الغيب ومعجزة ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي وفيما حلَّ بين أهل مكة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ﴾ القرآن ﴿ٱلۡحَقُّۗ﴾ لا ريب فيه ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾؟ كلام وارد لتوبيخهم، أي أوَلم يكفهم برهاناً على صدقك، ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؟ أي ألم يغنهم عن إرائة الآيات المبّينة لحقيّة القرآن، ولم يكفهم في ذلك، أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء؟.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ۝٥٤﴾.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ أي في شك عظيم من ذلك، يشكُّون بالبعث والجزاء ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ أي عالم بجميع الأشياء، يعلمها بتفاصيلها وظواهرها وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم لا محالة، والله أعلمُ بمراده، وأسرار كتابه، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خاتم النبيين، وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فصلت»

* * *

سُورَةُ الشُّورَىٰ

مكية وهي ثلاث وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾.

﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ اسمان للسورة ولذلك فُصِل بينهما، وقيل: اسم واحد، والفصل ليناسب سائر الحواميم.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي مثل ما في هذه السورة من الآيات، أوحى الله إليك في سائر السور، وإلى مَنْ قبلك من الرسل، لدعوة الناس إلى التوحيد، وما فيه صلاح العباد، والنبوة والمعاد، فلا تكن في شك من أمر الدين.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ استئناف مقرر لعزته وحكمته تعالى، أي جميع ما في الكون خلقُه وملكه، وهو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالعظمة والكبرياء.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ أي يتشقَّقن من عظمة الله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من دعاء الولد، كما في سورة مريم[1] ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي يُبتَدَأ التفطر من جهتهن الفوقانية، وتخصيصها لما أن أعظم الآيات من تلك الجهة ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ ﴾ ينزهونه عما لا يليق به متلبِّسين ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين، كما في آية أخرى ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ فهو عام يراد به الخاص، وقيل: هو على العموم، طمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إذ ما من مخلوق، إلا وله حظ عظيم، من رحمته تعالى.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي شركاء وأنداداً ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم، فيجازي بها ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي لست بموكَّل بهم، أو بموكول إليك أمرهم، وإنما وظيفتك الإنذار.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾.

---

(١) وذلك في قوله سبحانه: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إدّاً. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هداً. أن دعوا للرحمن ولداً. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً..﴾ الآيات.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء البديع ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أي أهلها وهي مكة، سميت بهذا إجلالاً لها، لأن فيها البيت، والعرب تسمي أصل كل شيء أمَّه ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعني بلاد الأرض كلها، من العرب والعجم، كما صرح به قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ الآية ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ﴾ أي يوم القيامة، لأنه يومٌ يجمع فيه الخلائق ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي بعد جمعهم في الموقف، ثم يفرقون بعد الحساب إلى النعيم، أو الجحيم.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ من يشاء أن يدخله فيها، ويدخل في عذابه من يشاء أن يدخله فيه، ومشيئته تعالى تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لاستعداده، فمن علم منه استحقاق الهدى يهديه، ومن علم منه اختيار الضلالة يضله، ولا جبر ولا إكراه على أحد ولا إجبار، بل هناك محض الاختيار ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1] ولهذا قال سبحانه ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ للإيذان بأن الإدخال في العذاب بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالى، والمعنى: لو شاء الله مشيئةَ قدرةٍ، لقَسرهم على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة، وبنى أمرهم على ما يختارون، ليدخل المؤمنين في رحمته، وتُرك الظالمون بغير ولي ولا ناصر، لسوء اختيارهم.

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٩.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي بل اتخذوا متجاوزين الله، أولياء من الأصنام والأوثان؟ ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن أرادوا ولياً، فالله هو الولي، لا وليَّ سواه ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ دون من لا يقدر على شيء أصلاً.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون، من أمور الدين أو أمور الدنيا ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى الله﴾ أي فالحكم فيه إلى الله جلَّ وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بقضاء رسوله ﷺ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحكيم العظيم الشأن ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي مالكي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي في مجامع أموري خاصة، لا على غيره ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع إليه في كل ما ظهر لي من معضلات الأمور، لا إلى أحد سواه.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي خالقها ومبدعها ابتداءً على غير مثالٍ ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي زوجات من الآدميات ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي وخلق لكم من الأنعام أصنافاً، وذكوراً وإناثاً، ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي يكثِّركم بسببه بطريق التوالد، ولذلك خلق الذكر والأنثى، من الذرء بمعنى البث والنشر ﴿فِيهِ ۚ﴾ أي فيما ذكر من التدبير، فإنَّ جعل الناس والأنعام أزواجاً، يكون بينهم توالد، كالمنبع للتكثير

للنسل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس مثله، تعالى شيء، في شأنٍ من الشؤون، التي من جملتها هذا التدبير البديع، والمراد من مثله ذاته تعالى، كما في قولهم: «مِثْلُكَ لا يفعلُ كذا» على قصد المبالغة، في نفيه عنه، أي ليس كذاته شيء جلَّ وعلا ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ المبالغ في العلم، بكل ما يُسمع ويُبْصر، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ فمعناه: وله الوصف الأعلى، الذي ليس لغيره مثله، وهو وصف الجلال والكمال.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح أرزاق العباد ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء، ويُضيِّق على من يشاء ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في الإحاطة به.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿۞ شَرَعَ﴾ أي بيَّن وأظهر ﴿لَكُم﴾ الخطاب للمسلمين من أمة محمد ﷺ، ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ﴾ من مشاهير الأنبياء عليهم السلام، على أن تخصيصهم بالذكر لعلو شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليهم، لاتفاق الكل على نبوة بعضهم، فما من نبي إلا مأمور بما أمروا به، وهو عبارة عن التوحيد، ودين الإسلام، وما لا يختلف باختلاف الأمم والأعصار، ولم يرد الشرائع، فإنها مختلفة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَاجًا﴾[1] ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي دين الإسلام، الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي لا تختلفوا فيه كما اختلف اليهود والنصارى فضلُّوا وزاغوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض عبادة الأصنام، واستبعدوه حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[2] ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ أي يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد، من هو أهل له، وفيه استعداد للخير والإيمان ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يجتبيه إليه، وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي يُقبل إليه حيث يمده بالتوفيق والألطاف.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بأن الفرقة ضلال، شروعٌ في بيان أهل الكتاب، عقب الإشارة إلى أحوال أهل الشرك، وعن ابن عباس رضي الله عنه هم «اليهود والنصارى» أي ما تفرقوا في الدين، الذي دُعوا إليه، إلاَّ من بعدما جاءهم العلم بحقيَّته، بما شاهدوا في رسول الله ﷺ والقرآن، من الدلائل الحقة، حسبما وجدوه في كتابهم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسداً وحمية، وطلباً للرياسة، لا لأن لهم شبهة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالإمهال ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجل الله لهم العقوبة في الدنيا، وأهلكهم بعذاب الاستئصال، لاستيجاب

---

(١) سورة المائدة، آية: ٤٨.

(٢) سورة صٓ، آية: ٥.

جناياتهم لذلك ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي وإن كفار مكة الذين أُورثوا القرآن، من بعد ما أُورث أهل الكتاب كتابهم ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع لهم في الريبة، ولذلك لا يؤمنون به.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي فلأجل ما ذكر من التفرق والشك، الذي حدث لأهل الكتاب ﴿فَٱدْعُ﴾أي الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين، والعمل بموجبه، فإن تفرقهم، وكونهم في شك في الدين، سبب للدعوة إليه ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وأوحي إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أيَّ كتاب من الكتب المنزلة، لا كأولئك الضالين الذين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والأحكام، وفصل القضايا عند المحاكمة، والمعنى: أمرني ربي أن أعدل بينكم إذا تخاصمتم إليَّ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا، لا يتخطانا جزاء أعمالنا، ثواباً كان أو عقاباً ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا محاجة ولا خصومة، لأن الحق قد ظهر وبان، كالشمس في رابعة النهار، ولا يبقى للمحاجة حاجة، سوى المكابرة ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم، فإن قيل: كيف يليق بهذه المجاوبة، ما فُعل بهم من القتل والإجلاء؟ قلنا: هذه كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين، المتفق على صحته بين كل الأنبياء، وفيه التوحيد، والإقرار بنبوة الأنبياء، والتصديق بالكتب المنزلة، فلما لم يقبلوا هذا الدين، فحينئذ فات الشرط، فلا جرم فات المشروط.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ أي في دين الله ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ أي من بعد ما استجاب له الناس، ودخلوا في الإسلام، والمراد بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾ اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: كتابنا قبل كتابكم، ونبيُّنا قبل نبيِّكم، ونبوَّة موسى والتوراة، معلومة بالاتفاق، ونبوّة محمد ليست متفقاً عليها ﴿ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ أي زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة معهم على زعمهم الباطل ﴿ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي عليهم غضب من الرحمن، وعذاب شديد في الآخرة .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ ملتبساً به في أحكامه وأخباره وتشريعه ﴿ وَٱلۡمِيزَانَۗ ﴾ والشرع العادل الذي توزن به الحقوق، ويسوى بين الناس ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ ﴾ أيْ أيَّ شيء يجعلك عالماً ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ ﴾ التي يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق ﴿ قَرِيبٌ﴾ أي قريب مجيئها، والمعنى: إنها على جناح الإتيان فاستمسك بالكتاب، واعمل به، وواظب على العدل.

﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ ﴾ استعجال إنكار واستهزاء ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ أي خائفون منها ﴿ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي يجادلون فيها، من

المِرْية بمعنى الشك ﴿لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، فإن قيام الساعة غير مستبعد، عن قدرة الله تعالى، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي بليغ البر بهم، يفيض عليهم من فنون ألطافه، ما لا تكاد تناله أيدي الأفكار والظنون ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ أي يرزقه كيف يشاء، فيخصُّ كلاً من عباده، بنوع من البر، على ما تقتضيه مشيئته المبنيَّة على الحكم البالغة ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغلب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض، ويستعمل في ثمرات الأعمال، أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ﴾ نضاعف له ثوابه، إلى سبعمائة فما فوقها، ونزد له في تسهيل سبيل الخيرات والطاعات ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو متاعها وطيباتها ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي شيئاً منها، حسبما قسمنا له، لا ما يريده، كما قال في سورة بني إسرائيل: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذ كانت همته مقصورة على الدنيا، فليس له حظ من الثواب، والنعيم في الآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾؟ أي بل لهم شركاء من الشياطين، والهمزة

للتقرير وللتقريع ﴿شَرَعُوا لَهُم﴾ بالتسويل والتزيين ﴿مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ كالشرك والعصيان، وقيل: شركاؤهم، أي أوثانهم، وإضافتها إليهم، لأنهم الذين جعلوها شركاء لله، وإسناد الشرع إليها وهي جمادات إسنادٌ مجازي، لأنها سبب ضلالهم وافتنانهم، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَاسِ﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء، لعُجِّلت لهم العقوبة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المؤمنين والكافرين، بتعجيل العقوبة للكفار ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب موجع مؤلم يوم القيامة، والعذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يوم القيامة، والخطاب لكل أحد ممن يصلح له ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من السيئات ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي وباله لاحقٌ بهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي مستقرون في أطيب بقاعها، وأعلى منازلها ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم ما يشتهون من فنون المستلذات، حاصل لهم عند رب كريم ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر من حال المؤمنين، أي ذلك النعيم ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي ذلك الذي أكرمهم الله به، هو النعيم الأكبر، الذي لا يُقادر قدرُه.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يبشرهم به ربهم ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا من التبليغ والبشارة ﴿أَجْرًا﴾ أي نفعاً ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي إلاَّ أن تودُّوني لقرابتي منكم، وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لا أسألكم أجراً قطُّ، لكن أسألكم المودة في القربى ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يكتسب حسنة، نزد له في الحسنة حُسْناً، بمضاعفة الثواب فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويكثّر القليل من الحسنات، ويشكر للمحسن إحسانه، والشكور المبالغ في الشكر، الذي يعتدُّ بالطاعة، ويجزل عليها الثواب الكبير.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾؟ بل أيقولون ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ أي اختلق محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة، وإنزال القرآن؟ والهمزة للإنكار التوبيخي، كأنه قيل أيتجرؤون أن ينسبوا مثله ﷺ إلى الافتراء، لا سيما الافتراء على الله، وهو أعظم الافتراء وأفحشه؟ فمثله لا ينسب إلى الكذب، مع اعترافهم له من قبل بالصدق والأمانة ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا، ببيان أنه صلى الله عليه وسلم لو افترى على الله، لمنعه من ذلك قطعاً، كأنه قيل: لو كان هناك افتراء عليه تعالى، وشاء عدم صدوره عنك، يختم على قلبك بحيث لا يخطر ببالك معنى من معانيه، وحيث لم يكن كذلك، بل تواتر الوحيُ، تبيَّن أنه من عند الله تعالى ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي ومن عادته تعالى أن يمحو الباطل، ويثبت الحق بوحيه، كقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ وهذا عِدَةٌ لرسول الله ﷺ بأن الله يمحو الباطل الذي هم عليه، ويثبت الحق الذي هو القرآن ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيجري عليها أحكامها من المَحْوِ

والإثبات، والغرض من الآية أنك لو افتريتَ على الله الكذب ـ ـ كما يزعم المجرمون ـ لختمنا على قلبك، فأنسيناك هذا القرآن، وسلبناه من صدرك، ولكنك لم تفتر على الله كذباً، ولهذا أيَّدناك وسدَّدناك!! ففي الآية تكذيب لدعوى المشركين.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي هو سبحانه بفضله وكرمه، يتقبل التوبة من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي، وأنابوا إلى الله بصدق وإخلاص، كما ورد في الحديث الشريف «إن الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1]. ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ كائناً ما كان، فهو الرقيب المطَّلع على الأعمال، وسيجازيكم عليها.

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي يستجيب الله لهم دعاءهم، كما استجابوا لطاعته، والمراد بإجابة دعائهم: الإثابة على طاعاتهم ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ على ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد، والتخصيص بالمؤمنين هل يدلُّ على أنه تعالى لا يجيب دعاء الكافر؟ قيل: نعم، لأن الإجابة تعظيمٌ، وقيل: يجوز لقوله تعالى: ﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه﴾؟ وفائدة التخصيص، أن إجابة دعاء المؤمنين، تكون على سبيل

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٥٣١ وقال: حديث حسن، والغرغرةُ أن تصل الروح إلى الحلقوم، عند الموت والاحتضار.

التشريف، وإجابة ودعاء الكافرين، على سبيل الاستدارج ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لتكبروا وأفسدوا، ولعلا بعضهم على بعض، بالاستيلاء، كما عليه الجِبلَّةُ البشرية ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ﴾ أن ينزِّله، مما تقتضيه مشيئته ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي محيط بخفايا أمورهم، فيقدِّر لكل واحد منهم ما يليق بشأنه، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، حسبما تقتضيه الحكمة، وقد قيل: ثلاثةٌ ليس لها نهاية: الأمنُ والصحةُ والكفاية.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ أي المطر الذي يغيثهم من الجدب، ولذلك خُصَّ الغيثُ بالنافع منه، فإن المطر قد يضرُّ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أي يئسوا منه، وتقييده بذلك، مع تحققه بدونه أيضاً، لتذكر كمال النعمة، فإن حصول النعمة بعد اليأس أوجب لكمال الفرح، وأدعى للشكر، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء، من السهل، والجبل، والنبات، والحيوان ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ الذي يتولى عباده بالإحسان، ونشر الرحمة ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد لا غيره، وقيل لعمر رضي الله عنه: اشتد القحط، وقنط الناس، فقال: مُطِروا، أراد هذه الآية.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصانع، فإنها تدل على شؤونه العظيمة ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي من حي فيما يدب على الأرض، أو يطير في الجو، وهذا يشمل الإنس، والجن، والملائكة، وقد يجوز أن يكون للملائكة مشي مع الطيران، فيوصف بالدبيب، والدبيب في اللغة: المشيُ الخفيفُ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ ﴾ أي على حشرهم بعد البعث ﴿ إِذَا يَشَآءُ ﴾ أي في الوقت الذي يشاء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ متمكن منه، لا يعجزه شيء.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أيَّ مصيبة كانت، فهي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، والخطاب مع من يفهم ويعقل، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ من الذنوب، فلا يعاقب عليها، والآية مخصوصة بالمجرمين، فإن ما أصاب غيرهم لأسباب أخر، منها تعريضه للثواب، بالصبر عليه، عن علي رضي الله عنه أنه قال: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن، لأن الكريم إذا عاقب مرة، لا يعاقب عليه ثانياً.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ولستم فائتين من عذاب الله، ولا هاربين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ يحميكم منها ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفعها عنكم وفي الحديث الشريف

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يصيبُ المؤمنَ شوكةٌ فما فوقها، إلاَّ رفعه الله بها درجةً، وحطَّ عنه بها خطيئة»[1].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي كالجبال وكلُّ شيء مرتفع عند العرب فهو عَلَم.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجريها ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي فيبقين ثوابت على ظهر البحر، أي غير جاريات ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من تسيير السفن الضخمة فوق سطح الماء ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في العدد، دالة على ما ذُكر من شؤونه تعالى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي لكل مؤمن صابر شاكر، فإن الإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أي يرسلها، عواصف فيغرقن مع ركابها ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب، وإيقاع الإيباق عليهن، مع أنه حال أهلهن، للمبالغة والتهويل ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي ينجي آخرين، بطريق العفو عنهم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٠/ ٩٠ في المرضى باب ما جاء في كفارة المرض، ومسلم رقم ٢٥٧٢.

﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ عطف على علة مقدرة، أي لينتقم منهم ويعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، إذا توسطوا البحر، وغشيتهم الرياح من كل جانب ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي لا ملجأ لهم، ولا مهرب من العذاب.

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ ﴾ مما ترغبون وتتنافسون فيه ﴿ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ أي فهو متاعها، تتمتعون به مدة حياتكم ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ لخلوص نفعه ودوامه ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ زماناً حيث لا يزول ولا يفنى ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لا على غيره، فإنهم يعتمدون على الله وحده.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي الجرائم الكبيرة ﴿ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ أي الزنى ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي يصفحون عمَّن أساء إليهم وأغضبهم، وبناء «يغفرون» على ضميرهم للدلالة على أنهم الأحقاء بالمغفرة، لعزة منالها.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي استجابوا لأمر ربهم، بالإيمان

والتوحيد، نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله إلى الإيمان فاستجابوا له ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي لا ينفردون برأيٍ حتى يتشاوروا ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي في سبيل الخير.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، من فرط تدبرهم وتيقظهم، كراهة التذلل للأعداء، وهو وصفهم بالشجاعة، بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران، فإن كلاً منهما فضيلة محمودة في موقع، ورذيلة مذمومة في موقع، فإن الحلم عن العاجز محمود، وعن الظالم المتغلّب مذموم، وعليه قول الشاعر:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَه ... وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا

بيَّن الله تعالى أن هذه الخيرية، إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات عديدة:

١ ـ أن يكون من المؤمنين. ٢ ـ من المتوكلين على الله. ٣ ـ من المجتنبين للفواحش. ٤ ـ من المنقادين لأمر الله. ٥ ـ من المنتصرين لدينه.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ بيان لوجه كون الانتصار من الفضائل الحميدة، مع كونه في نفسه إساءة إلى الغير، بالإشارة إلى أن البادي هو الذي فعله لنفسه، فإن الأفعال مستتبعة لأجزيتها حتماً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه تنبيه على حرمة التعدي، وإطلاق السيئة على الثانية،

لأنها تسوء من نزلت به[1] ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المسيء إليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين من يعاديه، بالعفو والإغضاء، كما في قوله تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عِدَةٌ مبهمة، منبئة عن عظم شأن الموعود ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي البادئين بالسيئة، والمعتدين في الانتقام.

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي بعد ما ظُلم دون عدوان ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة، لأنهم فعلوا ما أبيح لهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي إنما المؤاخذة والعقوبة على الذين يبدؤون بالعدوان، أو يعتدون في الانتقام، ويتكبرون على عباد الله، تجبراً وفساداً ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر، من الظلم والبغي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ لمن ظلمه، ولم ينتصر لنفسه، وفوّض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي من فضائل الأعمال التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، وهذه في الأمور التي لا يؤدي العفو فيها إلى الشر، كمن اعتاد العدوان على الناس، فإن

---

(١) مقابلة السيّئة بالسيّئة، لكيلا يتبجّح الشرُّ ويطغى، حين لا يجد من يردعه عن الظلم والعدوان.

العفو عنه يزيد في ضلاله وطغيانه، بل يجب أن يُردع ويُزجر، بعقاب يكفُّه عن الظلم والعدوان.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من ناصر يتولاه، من بعد خذلانه تعالى إياه ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي حين يرونه، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي يسألون ربهم، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا قائلين ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ ﴾ أي إلى رجعة ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾؟ حتى نؤمن، ونعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل؟.

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار، والخطاب في الموضعين لكل من يتأتى منه الرؤية ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أي متذللين متضائلين ممَّا دهاهم ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾ أي يسارقون النظر خوفاً وفزعاً، يبتدئون نظرهم إلى النار، من تحريكٍ لأجفانهم ضعيف، كالمصبور ينظر إلى السيف، فإن قيل: أليس إنه تعالى قال: إنهم يُحشرون عمياً؟ قلنا يكونون في الابتداء هكذا، ثم يُجعلون عمياً يسحبون إلى جهنم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي المتصفين بحقيقة الخسران ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ أي ضيَّعوا أنفسهم وأهلهم بالتعريض للعذاب الخالد ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ هذا من تمام كلام المؤمنين، أو تصديق من الله تعالى لهم، أي انتبهوا فإن الظلمة المشركين، في عذاب دائم لا ينقطع.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾ برفع العذاب عنهم، حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ أي غيره تعالى ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ يؤدي سلوكه إلى نجاة في الدارين، لأنه انسدَّتْ عليه طرق النجاة، فكيف يهتدي إلى طريق السعادة، وقد حاد عن هداية الله؟.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ أي أجيبوا ربكم إذا دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيه، قبل أن يأتي من الله يوم شديدٌ رهيب ﴿ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي لا يردُّه الله بعدما حكم به، وهو يوم القيامة ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي من مفرٍّ تلتجئون إليه حينئذ ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي من إنكار لما اقترفتموه، لأنه مدون في صحائف أعمالكم، وتشهد به عليكم جوارحكم، وقيل: المعنى: ليس لكم من ينكر ما ينزل بكم من العذاب، لا من أنفسكم ولا من غيركم، لأن أحداً لا يملك الاعتراض على الله جلَّ وعلا.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ ﴾ أي فإن لم يستجيبوا، وأعرضوا عما تدعوهم إليه ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ ﴾ أي رقيباً أو محاسباً لهم على أعمالهم ﴿ إِنْ

عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ رسالة ربك، وقد فعلت ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾[1] أي نعمة من الصحة، والغنى، والأمن ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي بطر وتكبَّر، وأريد بالإنسان الجنسُ، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي بلاء من مرض، أو فقر، أو خوف ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي مبالغ في الكفران لنعم المولى جل وعلا، ينسى النعمة حالاً، ويذكر البلية ويستعظمها، ولا يتأمل سببها، بل يزعم أنه أصابه بغير استحقاقٍ لها.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له التصرف فيهما، وفي كل ما فيهما كيفما يشاء، بالخلق والإيجاد ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مما نعلمه ومما لانعلمه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ من الأولاد ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ منهم، من غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد أصلاً.

---

(١) أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الجحود لنعم الرحمن، فهو يبطر عند حصول النعمة، ويضجر عند فواتها وزوالها، وفي الآية سرٌّ بديع من لطائف الأسرار البيانية، فإن «إذا» تفيد التحقيق، و «إن» تفيد الشك، فذكر تعالى النعمة بقوله: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان﴾ للإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول، بخلاف النقمة والبلاء فإنه على الشك والتقليل، ولهذا قال سبحانه ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ يعني على فرض حصول السيئة كالمرض، والفقر، والبلاء، فإن الإنسان كافر جاحد لنعمة الله، فالنعمة محققة الوقوع، والنقمة محتملة النزول، ونِعَمُ الله في الدنيا وإن كانت عظيمة وجليلة، ولكنها بالنسبة إلى نعيم الآخرة تافهة وحقيرة، كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سمَّاها الله عزَّ وجلَّ ذوقاً ﴿إذا أذقنا الإنسان﴾ فنبه تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الضئيل الحقير في الدنيا، فإنه يفرح بها ويعظم غروره، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، وذلك لجهله بحال الدنيا، وبحال الآخرة، فافهم أسرار القرآن.

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ ﴾ أي يقرن بين الصنفين، فيهبهما جميعاً، فيجمع للإنسان بين البنات والبنين، والذكور والإناث ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ ﴾ يعني يجعل أحوال العباد، في حق الأولاد، مختلفة على ما تقتضيه المشيئة فيهن، ولعل تقديم الإناث، لأنهن أكثر، لتكثير النسل، أو لتطييب قلوب آبائهن ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ في العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة[1]، والعقم يطلق على الذكر والأنثى، فقد يكون الرجل عقيماً لا يأتيه أولاد، وقد تكون المرأة عقيماً لا تلد، وليس العقم خاصاً بالنساء.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أي ما صح لفرد من أفراد البشر ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ بأن يوحي إليه، ويلهمه ويقذف في قلبه، كما أوحى إلى أم موسى، أو بأن يسمعه كلامه من غير أن يبصر السامعُ من يكلمه، وهو المراد من قوله: ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ فإنه تمثيل له بحال المَلِكِ المحتجب، الذي يكلم بعض خواصه، من وراء الحجاب، يسمع صوته ولا يرى شخصه، كما كلم موسى، وهذا أيضاً وحي، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ أو بأن يكلمه بواسطة المَلَك وذلك قوله تعالى:

---

(١) ليست السعادة في أن يرزق الله الإنسانَ ذكراً أو أنثى، وإنما السعادة في صلاح الأولاد ونجابتهن، ليكونوا قرة عين لآبائهن، وقد أحسن الشاعر حين قال:

نِعَمُ الإلهِ على العبادِ كثيرةٌ ... وأجلُّهنَّ نجابةُ الأولاد

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي مَلَكاً ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك المَلَك إلى المرسل إليه، الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يوحى إليه، وهذا هو الذي يجري بينه تعالى، وبين الأنبياء عليهم السلام، في عامة الأوقات ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ متعال عن صفات المخلوقين، لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم، إلاّ بأحد الوجوه المذكورة ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على سنن الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، والأخرى بدونها، إما إلهاماً وإما خطاباً، وسبب نزول هذه الآية، أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألا تكلم الله، وتنظر إليه، كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فنزلت الآية ردّاً عليهم ذلك الافتراء، فما رأى موسى ربه ولا نظر إليه، وإنما سمع كلامه من وراء حجاب ﴿وكلَّم الله موسى تكليماً﴾ وحين طلب موسى رؤية ربه ﴿قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾ الآية.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ هو القرآن، الذي هو للقلوب، بمنزلة الروح للأبدان، حيث يحييها حياة أبدية ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أيّ أيَّ شيء هو؟ ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي الإيمان بتفاصيل الأمور، التي لا تهتدي إليها العقول، لا الإيمان بما يستقل به العقل، لأنه ﷺ قبل النبوة كان يوحّد الله تعالى، ولا يأكل ما ذُبح على النصب، ويُبغض الأصنام، وكان يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام، ولم يتبين له شرائع دينه، إلا بعد الوحي إليه ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي الروح الذي أوحيناه إليك ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ هو الذي يصرف اختياره، نحو الاهتداء به ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ أي وإنك يا محمد، لتدل وترشد الناس ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، دين الله الخالد!!.

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى ﴾ بدل من الأول، وإضافته إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنه، وتأكيد وجوب سلوكه ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ أي له كل ما في الكون ملكاً، وخلقاً، وعبيداً ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي أمور ما فيهما، لا إلى غيره، ففيه من الوعد للمهتدين، والوعيد للضالين الظالمين. والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى»

* * *

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مكية وهي تسع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي أقسم بالقرآن البيِّن الواضح الجلي.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ ﴾.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي جعلنا ذلك الكتاب، قرآناً عربياً، لكي تفهموه، وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق، والمعنى الفائق، وتقفوا على ما يتضمَّنه، من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حق النعمة في ذلك.

﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي في اللوح المحفوظ، فإنه أصل الكتب السماوية ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أي عندنا ﴿ لَعَلِىٌّ ﴾ أي رفيع القدر، بيِّن الفضل ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذو حكمة بالغة، ومكانة فائقة، وفي الإقسام بالقرآن على علو قدره، براعة بديعة، وإيذان بأنه من علو الشأن، بحيث لا يحتاج في بيانه،

إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره، بل هو بذاته كافٍ في الشهادة على ذلك، من حيث الإقسام به، كما أنه كافٍ فيها من حيث إعجازه.

وبعدما بيّن علو شأن القرآن، وحقَّق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به، ويعملوا بموجبه، عقَّب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه، فقال سبحانه:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ أي أنهملكم فننحِّي الذكر عنكم، ونعتبركم كالبهائم، فلا نعظكم ولا نذكِّركم بالقرآن؟ وفيه إشعار باقتضاء الحكمة، توجه الذكر إليهم، وملازمته لهم، كأنه يتهافت عليهم ﴿صَفْحًا﴾ أي إعراضاً عنكم ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لأجل إسرافكم في المعاصي والإجرام، ومجاوزتِكم الحدَّ في الضلالة، على معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم، حتى تموتوا على الكفر والضلالة، لكنا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق، بإرسال الرسول الأمين، وإنزال الكتاب المبين.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقرير لما قبله، ببيان أن إسراف الأمم السالفة، لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم لهدايتهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ، أي هذه عادة الأمم الضالين، ما جاءهم رسول إلا سخروا منه واستهزؤوا، فلا ينبغي أن تحزن وتتأذى من قومك، بسبب تكذيبهم لك.

﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي من هؤلاء المسرفين، وصفهم بالبطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية، أي كانوا أعتى وأطغى من قومك كفار مكة، ومع ذلك أهلكهم الله ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي سَلف في القرآن قصتهم، وفيه وعد ووعيد[1]

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي يُسندن خلقها إلى من هذا شأنُه، في الحقيقة ونفس الأمر، لا أنهم يعبِّرون عنه بهذا العنوان، وسلوك هذه الطريقة، للإشعار بأن اتصافه تعالى بجلائل الصفات، وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء، أمرٌ بيِّنٌ لا ريب فيه، وأن الحجة قائمة عليهم، شاؤوا أو أبوا، والمقصود بيانُ أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى، يعبدون غيره جهلاً منهم وسفهاً، وينكرون قدرته على البعث والجزاء، فإذا سئلوا عمن خلق السموات والأرض، اعترفوا بأن الخالق هو الله، ثم هم يعبدون غيره.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

---

(١) الغرض من الآية أن الله عزَّ وجل لا يترك هؤلاء الكفار، على كفرهم وفجورهم، وضلالهم، دون أن يبعث إليهم من ينصحهم ويذكّرهم، رحمة بهم، وإن كانوا هم معرضين عن الإيمان، مسرفين في العصيان، لأن لطف الله ورحمته بالعباد، تقتضي التذكير والتبصير، قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع، حين ردَّه أوائل هذه الأمة، لهلكوا جميعاً، ولكنَّ الله برحمته كرَّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة!!.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي بسطها لكم تستقرون فيها، وتبنون وتنامون ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي طرقاً تسلكونها في أسفاركم ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكر إلى التوحيد الذي هو المقصد الأسمى.

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ أي بمقدار تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكم والمصالح، وبقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ ﴾ أي أحيينا بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي خالياً عن النماء والنبات، مقفراً من الزروع والثمر ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإحياء، وهو إخراج النبات من الأرض ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ أي تُبعثون من قبوركم أحياء.

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي أصناف المخلوقات، من الحيوان والنبات، وكلُّ ما سوى الله تعالى فهو زوج، كالفوق والتحت، واليمين واليسار، والذكر والأنثى ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي ما تركبونه تغليباً للأنعام على الفُلْك، فإن الركوب متعد بنفسه.

﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ أي لتستعلوا على ظهور ما تركبونه، من السفن والأنعام ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي تذكروها بقلوبكم معترفين

بها، ثم تحمدوا ربكم عليها بألسنتكم ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين، قال أبو عبيدة: فلان مقرن لفلان أي ضابط له، أي ما كنتم مطيقين لها وضابطين لحركاتها، لولا تسخير الله عزَّ وجل.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير، ويتذكر منه المسافرة العظمى، التي هي الانقلاب إلى الله تعالى، فيبني أموره على تلك الملاحظة، فإن الإنسان لا يزال في سفر، حتى يستقر به القرار، إما في الجنة أو في النار.

روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر، حمد الله تعالى، وسبَّح وكبر ثلاثاً، ثم قال: «سبحان الذي سخَّر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهمَّ إنا نسألك في سفرنا هذا، البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطوِ عنَّا بُعده، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهمَّ إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب، في الأهل والمال»[1].

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ﴾ أي وقد جعلوا له سبحانه، بعد ذلك الاعتراف بخلق السموات والأرض ولداً، وإنما عبر بالجزء، لمزيد استحالته في حقِّ الواحد الأحد، من جميع الجهات، والمقصود منه التنبيه على سخافة عقولهم، وقلة محصولهم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر الكفران، مبالغ فيه، ولذلك يقولون ما يقولون.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٤٢، والترمذي رقم ٣٤٤٤، وأبو داود رقم ٢٥٩٩.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾؟ هذا بيان لبطلان جعلهم ذلك الولد من أحسن صنفيه في نظرهم، والهمزة للإنكار والتعجيب منهم ﴿ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾؟ أي واختار لكم أفضلهما؟ وتنكير «بنات» وتعريف البنين، لتربية ما اعتبر فيهما من الحقارة، والفخامة، أي هل خصّكم واختار لكم البنين، واتخذ لنفسه البنات؟ ما لكم كيف تحكمون؟ أفلا تعقلون؟.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ أي وإذا بشر أحدهم بالأنثى، التي نسبها إلى الله وجعلها له مثلاً ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ أي صار وجهه كأنه أسود من سوء ما بُشر به ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مملوء من الكرب والكآبة كأنه فعل جريمة يستحق العقاب عليها.

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾ أي أوجعلوا ما شأنه أن يُربَّى في الزينة، وهو عاجزٌ عن أن يتولى أمره بنفسه؟ ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ ﴾ أي في الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه الإنسان في العادة ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي غير قادر على تقرير دعواه، وإقامة حجته، لنقصان عقله، وضعف رأيه؟.

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ ﴾ بيان لتضمن كفرهم المذكور، لكفر آخر، وهو جعلهم الملائكة الذين همْ أكمل الخلق، وأكرمهم

وأكرمهم على الله إناثاً، ونسبتهم إلى الله حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وهؤلاء كفروا بثلاثة أشياء: ١ ـ بإثبات الولد لله، ٢ ـ وبأنَّ هذا الولد بنت، ٣ ـ والحكم على الملائكة بالأنوثة ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾؟ أحضروا خلق الله إياهم، فشاهدوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم؟ وهو تجهيل لهم وتهكم بهم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ هذه في ديوان أعمالهم ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عن هذا الكذب والافتراء.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾ أي لو شاء عدم عبادتنا للملائكة ما عبدناهم، أرادوا بذلك أن ما فعلوه حقٌّ، مرضي عند الله تعالى، وأنهم إنما يفعلونه بمشيئته تعالى، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي بما أرادوا بقولهم الباطل ﴿مِنْ عِلْمٍ ۚ﴾ يستند إلى سندٍ ما ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون لأنهم أرادوا بالمشيئة الرضا، أو قالوا هذا القول استهزاءً لا اعتذاراً، وجعلوا المشيئة حجة لهم، وظنوا أن الله تعالى لا يعذبهم على أي شيء فعلوه ولما أظهر وجوه فساد دعواهم من طريق العقل، أضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم من جهة النقل، فقال تقدست أسماؤه:

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن، ينطق بصحة ما يدَّعونه؟ ﴿فَهُم بِهِۦ﴾ بذلك الكتاب ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وعليه معولون.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي على طريقة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ

﴿ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية، سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم، تقليداً أعمى، دون بصر ولا نظر.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كما ذكر من تشبثهم بذيل التقليد ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ استئناف مبيِّنٌ بأن التقليد ضلالٌ قديم، وتخصيص المترفين للإيذان بأن التنعم، وحب الرئاسة، هو الذي صرفهم عن النظر، إلى فساد التقليد.

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾.

﴿قَٰلَ﴾ أي قال كل نبي لأمته ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ أي أتقتدون بآبائكم الجهلة ولو جئتكم ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ بدين أهدى وأرشد ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾؟ من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء، وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على سلك الإنصاف ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قالت كل أمة لنبيِّها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قبل أن ينظروا ويتفكروا فيه، إقناطاً للنذير.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم على الكفر والضلال بالاستئصال ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فلا تكترث بتكذيب قومك.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ أي واذكر لهم وقت قال ﴿ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ براءٌ مصدر نعت به مبالغة، يستوي فيه الواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث، أي إنني بريء من عبادتكم ومعبودكم.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ استثناء منقطع، أي غير الذي فطرني ﴿ فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ أي يرشدني لدينه، ويوفقني لطاعته، وسيثبتني على الهداية، والسين للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي جعل إبراهيم عليه السلام «كلمة التوحيد» التي تكلم بها ﴿ كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أي في ذريته حيث وصَّاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿ووصَّى بها إبراهيم بَنِيهِ﴾ الآية فلا يزال فيهم من يوحِّد الله، ويدعو إلى توحيده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي جعلها باقية في عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول ﷺ من أهل مكة ﴿ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ بالمدِّ في العمر والنعمة، ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم، فاغترُّوا بالمُهْلة، وانهمكوا بالشهوات، وغفلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الرسالة بالمعجزات الباهرة، وكان الواجب أن يجعلوه سبباً لزيادة الشكر، فجعلوه سبباً لزيادة الكفر.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ ازدادوا كفراً وعتواً، وضمّوا إلى كفرهم معاندة الحق، والاستهانة به، حيث ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ فسمَّوا القرآن سحراً، واستحقروا الرسول ﷺ، وكذّبوه.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ ﴾ ؟ أي من إحدى القريتين مكة أو الطائف ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أي بالمال والجاه، كالوليد بن المغيرة من مكة، و «عروة بن مسعود» من الطائف، ولم يتفوهوا بهذه العظيمة، حسداً على نزوله على الرسول ﷺ دون عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته، بل استدلالاً على عدمها، بمعنى أنه لو كان قرآناً، لنزل على هؤلاء، بناءً على أن منصب الرسالة منصب جليل، لا يليق إلا بمن له جلالة، من حيث المال والجاه، ولم يدروا أنها وثبة روحانية، لا يترقى إليها إلاّ خواص المختصين، بالنفوس الزكية، أما المتمتعون بالحظوظ الدنيوية، فهم من استحقاق تلك الرتبة بآلاف منزل، قال الله تعالى رداً عليهم.

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾؟.

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ ﴾؟ إنكارٌ فيه تجهيلٌ لهم، وتعجيب من تحكمهم في شؤون الوحي ﴿ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾؟ أي النبوة يعني أبيدهم مفاتيح الرسالة والنبوة، فيضعونها حيث شاؤوا؟ ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي أسباب معيشتهم، قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحِكَم والمصالح، ولم نفوِّضْ أمرها إليهم، فمن أين لهم أن يتحكَّموا في أمر النبوة، التي

هي أعلى المراتب وأقدسها؟ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق، وسائر مبادىء المعاش ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ متفاوة، حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيفٍ وقوي، وفقير وغني، وحاكم ومحكوم ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي ليستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم، حتى يتعايشوا ويصلوا إلى مرافقهم، لا لكمال في الموسَّع، ولا لنقص في المقتَّر، ولو فوضنا أمرها إلى تدبيرهم لهلكوا ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، لأن منافع الدنيا على شرف الانقضاء، وثمرات الرحمة تبقى أبد الآباد!!.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بيان لحقارة متاع الدنيا، ودناءة قدره، عنده عزَّ وجلَّ، والمعنى: إن حقارة شأن المتاع، بحيث لولا أن يرغب الناس، لحبهم الدنيا في الكفر، إذا رأوا أهله في سَعَة وتنعم، فيجتمعوا عليه، لأعطيناه بحذافِيره، من هو شرُّ الخلائق، وأدناهم منزلة، وذلك قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي للكفار خاصة ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي متخذة منها ﴿وَمَعَارِجَ﴾ من فضة، أي مصاعد إلى المساكن العالية، كالدرج والسلالم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يعلون السطوح والعلالي.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي وجعلنا لبيوتهم ﴿أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ من فضة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على السرر ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾ تكرير ذكر «بيوتهم» لزيادة التقرير.

﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ أي وزينة عظيمة من كل شيء، من الذهب، والفضة وسائر أنواع الجواهر ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي وما كل ما ذُكر إلاَّ شيء يتمتع به في الحياة الدنيا عما قريب يزول ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي والآخرة وما فيها من أنواع الملاذ والنعم للمؤمنين المتقين، الذين يتقون الكفر والمعاصي، فتبيَّنَ بهذا أن المال والجاه، حقيران عند الله تعالى، وأنهما على شرف الزوال، وأن العظيم هو العظيم في باب التقوى، والإيمان، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا عند الله، تزن جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شَرْبةَ ماء»[1] فإن قيل: لمَّا بيَّن الله أنه لو فتح على الكافرين أنواع النعم، لصار ذلك سبباً لاجتماع الناس على الكفر، فلمَ لم يفعل ذلك بالمسلمين، وكانوا يجتمعون على الإسلام؟ قلنا: لأن الناس على هذا التقدير، كانوا يجتمعون لطلب الدنيا، فهذا إيمان المنافقين، فلا بد أن يكون كل من دخل الإسلام، يدخل لطلب رضوان الله تعالى وثوابه، فحينئذ يكون مسلماً صادقاً في دينه، وأما في طلب الدنيا فلا يظهر حقيقة إسلامه.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ أي يتعام، يقال: عَشَىٰ يَعْشَىٰ إذا كان في بصره آفة، وعَشِىَ يَعْشُو إذا تعامى بلا آفة ﴿ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ وهو القرآن، وإضافته إلى «الرحمن» للإيذان بنزوله رحمة للعالمين، والمعنى: ومن يتعامَ ويُعرض عن القرآن، لفرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا، وانهماكه في الشهوات،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢١ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ﴾ أي نضم إليه ونسلط عليه ﴿شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي فهو له ملازم، ومصاحب لا يفارقه، ولا يزال يوسوس إليه ويغويه، والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا، وذلك أن من حاز المال والجاه، صار كالأعشى عن ذكر الله، وإذا ازداد حبهما زاد العشىٰ حتى يصير كالعمىٰ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي الشياطين المضلين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي قرناءهم ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستبين الذي يدعو إليه القرآن الكريم ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي ويظن الكفار ﴿أَنَّهُم﴾ أي الشياطين ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ إلى سبيل مستقيم، وإلاَّ لما اتَّبعوهم[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي كلُّ واحد منهم، مع قرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ أي قال الكافر مخاطباً لقرينه ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب، أي تباعد كل منهما عن الآخر، فغلَّب ههنا المشرق على المغرب ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت، وقوله: ﴿ولن ينفعكم اليوم﴾ الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ، من جهة الله عز وجل، توبيخاً.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة تمنيكم ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أي

---

(١) الأظهر أن الضمير يعود إلى الكفار أنفسهم، أي وإن الكفار يظنون أنهم مهتدون باتّباعهم طريق الشياطين.

لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي اشتراككم في العذاب، كما كنتم مشتركون في سببه في الدنيا، على معنى: أن اشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم البلاء، لأن المكروب يجد راحة التأسي بغيره، وهؤلاء لا يجدون ذلك، فقد حُرموا أهون أنواع العزاء.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ كان ﷺ يبالغ في المجاهدة لدعوة قومه، وهم لا يزيدون إلا غَيّاً وتعامياً، عما يشاهدونه من شواهد النبوة، فنزلت هذه الآية، وهذا تسلية للرسول ﷺ، لأن اليأس إحدى الراحتين. ثم وعد تعالى أن ينتقم منهم، وذلك أيضاً يوجب التسلية، وقوله تعالى: ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ ؟ إنكار وتعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، وهم قد استغرقوا في الكفر والضلال بحيث صار ما بهم من العَشَى عمى، مقروناً بالصَّمم!! ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟ مدار الإنكار، هو تمكنهم في الضلال، المفرط، بحيث لا ارعواء لهم عنه، لا توهم القصور من قبل الهادي ﷺ، ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك، إلا الله تعالى وحده.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أي العذاب الذي وعدناهم إيّاه ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم

﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ بحيث لا مناص لهم من تحت ملكنا وقهرنا، ولقد أراه ﷺ بعض ذلك يوم بدر، ويوم أحد.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ﴾ أي فتمسَّكْ بالقرآن الذي أنزل عليك، بمراعاة شرائعه وأحكامه، سواءً عجَّلنا لك الموعود، أو أخرناه ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على طريقٍ سوي لا عوج له، وهو طريق التوحيد، ودين الإسلام.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾ أي القرآن العظيم الذي أوحي إليك، لشرف عظيم ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ أي لك يا محمد خاصة، ولأمتك عموماً، إذ أنزل عليهم أشرف الكتب السماوية ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عنه، وعن قيامكم بحقوقه.

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي واسأل أممهم وعلماء دينهم، كما في قوله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ وفائدة هذا التنبيه على أن المسؤول عنه، عين ما نطقت به ألسنة الرسل قال الفراء: إنما يخبرهم عن أتباع الرسل، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء عليهم السلام ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي هل أمرنا بعبادة الأوثان، وهل جاء ذلك في دين من أديانهم، والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على

التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع، حتى يُكذَّب ويُعادى فبيَّن الله تعالى أن إنكار عبادة الأصنام، ليس من خواص دين الإسلام، بل كان جميع الأنبياء مطبقين على إنكاره!!.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ أريد بذكر قصة موسى تسلية الرسول ﷺ، والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد، أي استهزؤوا بها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها بل ضحكوا سخرية واستهزاء.

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ من الآيات الباهرة، من ألوان العذاب كالطوفان، والجراد ﴿ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ ﴾ أي إلاَّ وهي في غاية الكبر والظهور ﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾ أي وعاقبناهم بأنواع العذاب الشديد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الكفر، إلى دين التوحيد.

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ نادوه بذلك في مثل تلك الحالة لغاية عتوهم، وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لاستعظامهم علم السحر ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ بعهده عندك من النبوَّة، أو

من استجابة دعائك ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك كقولهم: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾[1].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ عهدهم، مرَّ في الأعراف.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه رؤساء القبط ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ في مجمعهم، بعدما انكشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر: نهر الملك، نهر طولون، نهر دمياط، نهر تنيس ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي من تحت قصري في جناني وبساتيني ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك، يريد به استعظام ملكه، روي عن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأولينَّها أخسَّ عبيدي!! فولاها الخصيب وكان خادمه على وضوئه، فخرج إليها فلما شارفها قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون، والله إنها أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة ﴿مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف، حقير من المهانة وهي القلة، أي لا عزَّ له ولا سلطان ولا مال، يقصد به موسى

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٤.

عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي الكلام، قاله افتراءً عليه، وتنقيصاً له في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من لُكْنة، وقد كانت ذهبت عنه كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ ﴾ أي فهلاَّ ألقى الله إليه أسورة من ذهب، كرامة له ودلالة على نبوته، وقد كانوا إذا سوَّروا رجلاً سوَّروه وطوقوه بطوق من ذهب، وأسورة ﴿مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي يمشون معه يعينونه، ويصدقونه في دعواه.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ ﴾ فاستفزهم، وطلب منهم الخفة في مطاوعته، واستخف بعقول قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الكبير.

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ أي أغضبونا أشد الغضب، من أَسِفَ إذا اشتد غضبه ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهلكناهم بالغرق في البحر.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا ﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار، يسلكون مسلكهم في استجلاب غضب الله ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ أي عظةً لهم، أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال، فيقال: مثلهم كمثل قوم فرعون.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ ضربه ابن الزبعري حين جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ حيث قال: أهذا لنا ولآلهتنا، أو لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: لكم ولجميع الأمم، فقال اللعين: خصمتُك وربِّ الكعبة، أليس النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيراً، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون معهم!! ففرح قومه وضحكوا، وارتفعت أصواتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ من أي ذلك المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يرتفع لهم جلبة وضجيج، فرحاً وجدلاً.

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ أي كفرة قريش ﴿ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ ﴾؟ أي عيسى خير من آلهتنا، فإذا كان هو في النار، فلا بأس أن نكون مع آلهتنا في النار؟ وقد روي أنه ﷺ ردَّ عليه بقوله: ما أجهلك بلغة قومك!! أما تعلم أن «ما» لما لا يعقل!! يعني أن اعتراضه في غير محله، لأن الآية الكريمة وردت بلفظ ﴿إنكم وما تعبدون﴾ و «ما» في اللغة لما لا يعقل، ولو كان النص «إنكم ومن تعبدون» لكان هناك احتمال للاعتراض، على أن الآية بعدها وردت بالاستثناء ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾ أي ما ضربوا لك ذلك المثل، إلا لأجل الجدال والخصام، لا لطلب الحق، حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك. القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية، والآيات الكثيرة تدل أن الجدل الذي يفيد تقرير الحق ممدوح، وتصرف هذه الآية على الجدل الذي يوجب تقرير الباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي شداد الخصومة، مجبولون على اللَّجاج والعناد، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ

قوم بعد هُدىً، كانوا عليه، إلاَّ أُوتوا الجَدَل، ثم تلا ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ الآية[1].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما عيسىٰ ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي بالنبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أمراً عجيباً، حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال، حيث خُلق من أم بدون أب، كما خلق آدم عليه السلام، وفيه تنبيه على بطلان رأي منْ رَفعه عن رتبة العبودية، إلى رتبة الألوهية، لأنه مخلوق ومولود كسائر الأولاد.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ الخ هذه الآية لتحقيق أن مثل «عيسى» ليس ببدع من قدرة الله، وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك، بحيث لو نشاء ﴿لَجَعَلْنَا﴾ أي لخلقنا بطريق التوالد ﴿مِنكُمْ﴾ أي وأنتم رجال ليس من شأنكم الولادة ﴿مَلَائِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مستقرين فيها، أو لجعلنا بدلكم ملائكة ﴿يَخْلُفُونَ﴾ أي يخلفونكم يسكنون في الأرض.

قال مجاهد: ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي إن عيسى عليه السلام بمنزلة شرط من أشراط

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٥٠ وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه رقم ٤٨ باب اجتناب البدع والجدل، وأحمد في المسند ٥/ ٢٥٢.

الساعة، لأن الله عز وجل ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، فنزوله علامة على قربها، وقرأ ابن عباس «لَعَلَمٌ» للساعة، وهو العلامة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكن في وقوعها ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أي وقل لهم يا محمد اتبعوا هديي، وشرعي، وما جئتكم به من عند الله ﴿هَٰذَا﴾ أي الذي أدعوكم إليه ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي دين قويم موصل إلى الحق.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ﴾ عن اتباعي ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيِّنُ العداوة، حيث عرّضكم للبلية.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات، وبالشرائع البينات ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ أي بالحكمة الإلهية وبالشريعة الواضحة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ﴾ وهو ما يتعلق بأمور الدين، لا بأمور الدنيا، لأن بيانه ليس من وظائف الأنبياء، كما قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغه عنه تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ﴾ أي أنا وأنتم عبيد لله مأمورون بعبادته،

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٣٦٣ عن عائشة أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يُلقِّحون النخل، فقال: «لو لم تفعلوا لصَلح، فخرج شِيصاً ـ أي رديئاً ـ فقال لهم ﷺ: أنتم أعلم بأمر دنياكم» وانظر جامع الأصول ١١/ ٧٦٤.

وفيه ردٌّ على النصارى الذين اعتقدوا بألوهيته ﴿هَٰذَا﴾ أي التوحيد، والعمل بالشرائع ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي الفِرَقُ المتحزبة بعد عيسى عليه السلام، فصاروا شيعاً وأحزاباً في شأنه ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ﴾ من اليهود والنصارى فقال اليهود لعنهم الله: زنت أمه فهو ولد الزنى، وقال بعض النصارى: عيسى هو الله، وبعضهم قال: هو ابن الله، وزعم أكثرهم أن الله وعيسى وأمه آلهة، وهو ثالث ثلاثة، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ولهذا قال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي من المختلفين في عيسى عليه السلام الذين قالوا عنه ما كفروا به ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة وهم مشتغلون بأمور الدنيا وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ المتحابون في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ أي يوم إذ تأتيهم الساعة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لانقطاع ما بينهم من علائق الخلة، ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإن خلتهم في الدنيا لما كانت في الله، تبقى على حالها، بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلتهم من الثواب، ورفع الدرجات.

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله تشريفاً لهم.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي صدَّقوا بالقرآن وآيات الرحمن ﴿ وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ أي مخلصين في إيمانهم وطاعتهم، وعن مقاتل، إذا بعث الله الناس فزع كل أحد، فينادي منادٍ يا عبادي فيرفع الخلائق رؤوسهم على الرجاء، ثم يتبعها ﴿الذينَ آمنُوا﴾ فينكّسُ أهل الأديان الباطلة رؤوسهم.

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ ﴾ أي نساؤكم المؤمنات ﴿ تُحۡبَرُونَ ﴾ أي تُسرُّون سروراً يظهر أثره على وجوهكم.

﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكۡوَابٍۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم ﴾ أي بعد دخولهم الجنة ﴿ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ جمع صحفة، والصحفةُ: إناء كالقصعة جمعها صِحَافٌ ﴿ وَأَكۡوَابٍۖ ﴾ جمع كوب وهو كوز لا عروة له وهو القدح ﴿ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ ﴾ من فنون الملاذ ﴿ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ ﴾ أي تستلذه وتقرُّ بمشاهدته ورؤيته ﴿ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ إتماماً للنعمة، فإن كل نعيم له زوال، ونعيم الآخرة دائم، والالتفاتُ للتشريف.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة، شبَّه جزاء الأعمال بالميراث، لأنه يخلِّفه للعامل عليه.

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، لا بحسب الأفراد فقط ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي بعضها، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، وإنما ذكر تعالى التنعُّم بالمطاعم والملابس، وهو حقير بالنسبة إلى سائر نعم الجنة، لما كان بهم من الشدَّة والفاقة.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ أي الراسخون في الإجرام، وهم الكفار، حسبما ينبىء عنهم إيرادهم في مقابلة المؤمنين.

﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخفف العذاب عنهم ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ أي في العذاب ﴿ مُبْلِسُونَ ﴾ أي آيسون من النجاة.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لتعريض أنفسهم للعذاب الخالد.

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ ﴾ وهو خازن النار ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي ليمتنا حتى

نستريح، من قضى عليه إذا أماته، والمعنى سل ربك أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذكر من إبلاسهم، لأنه جؤار وتمنٍ للموت، لفرط الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه، بموتٍ ولا بغيره.

﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ في الدنيا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب،. وهو توبيخ من جهته تعالى ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ﴾ أي أكثركم كاره لدين الله ﴿كَـٰرِهُونَ﴾ لا يقبلونه وينفرون عنه.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ كلام ناعٍ على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله ﷺ، والهمزة للإنكار، أي أأبرمَ وأحكم مشركو مكة أمراً، من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا حقيقة لا هم، كقوله تعالى: ﴿أم يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ﴾ وكانوا يتناجون في أنديتهم ويتشاورون في أموره ﷺ، فنزل قوله تعالى.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي بل أيحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ﴾ أي ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي ﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعها ونطلع عليها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ أي يكتبون ما صدر عنهم التي من جملتها سرهم ونجواهم، وعن يحيى بن معاذ «من ستر من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية، فهذا من أمارات النفاق».

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي لهذا الولد، لأنه ﷺ أعلم الناس بشؤونه تعالى، وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومن موجبات تعظيم الوالد، تعظيم ولده[1]. والمقصود من هذا الكلام، بيان بأني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة، إن قام دليل على ثبوت هذا الولد، إلا أنه لم يوجد، بل الدليل القاطع على عدمه، وفيه من الدلالة على كون رسول الله ﷺ على قوة يقين، في باب التوحيد، ما لا يخفى.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي ممَّا يصفونه به من الزوجة والولد، وفي إضافة اسم الرب إلى العرش أعظم الإجرام، تنبيه على أنها وما فيها تحت ملكوته وربوبيته، فكيف يُتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه سبحانه، وفي تكريم اسم الرب تفخيم لشأن العرش.

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ حيث لم يذعنوا للحق، بعدما سمعوا هذا البرهان الجلي ﴿ يَخُوضُوا۟ ﴾ في أباطيلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ في دنياهم، فإن ما هم فيه من الأفعال والأقوال، ليست إلا من باب الجهل واللعب ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى

---

(١) الآية الكريمة على الفرض والتقدير، أي إن كان لله ولد، فأنا لا أستنكف عن عبادته، ولكنه سبحانه منزَّه عن الولد، لأنه ليس له صاحبة، كما قال سبحانه ﴿بديع السماوات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾؟ ثم الولد ينبغي أن يشبه أباه، فالله لايأكل ولا يشرب ولا ينام، فكيف يكون عيسى ابناً لله، وهو يأكل ويشرب ويحدث الحدث؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً!!.

يُوعَدُونَ﴾ يعني يوم القيامة، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا، وما يُفعل بهم، والمقصود منه التهديد.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ﴾[1] أي معبود بالحق في السماوات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي الحكيم بصنعه، العليم بخلقه كالدليل لما قبله.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي تمجَّد وتقدس الله مالك السماوات والأرض، وما بينهما من المخلوقات، من الملائكة، والإنس والجن ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تقوم فيها القيامة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، والالتفات للتهديد.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما يزعمون ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو التوحيد، أي المؤمن الموحِّد فهو الذي تنفع شفاعته، لا القسس، والكُهَّان، والأوثان ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإخلاص.

---

(١) لا يقتضي هذا تعدد الإله، لأن المراد بالإله هنا المعبود، أي هو جلَّ وعلا معبود في الأرض كما هو معبود في السماء، يعبده أهل السماء وأهل الأرض.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ أي سألت العابدين ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ لتعذر الإنكار فيه، من فرط ظهوره ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ مع كونهم يعترفون بكون الكل مخلوقاً له تعالى.

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ أي وقول الرسول، بالجر عطف على الساعة، أي عنده علم قوله ﷺ والقول والقال، والقيلُ، كلها مصادر ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ بك وبالقرآن فافعل بهم ما شئت، قيل له.

﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن دعوتهم ﴿ وَقُلْ ﴾ لهم ﴿ سَلَٰمٌ ۚ ﴾ أي أنا هاجر لكم وتارككم، فهو سلام متاركة، لا سلام تحية ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ حالهم البتة وإن تأخر، وهذا وعيدٌ من الله تعالى لهم، وتسليةٌ للرسول ﷺ، والله أعلم بمراده، والحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف»

* * *

سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية وهي تسع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي أُقسم لكم بالقرآن العظيم، الواضح البيِّن.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب المبين، وهو القرآن ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ هي ليلة القدر(١) قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وأطبقوا على أن ليلة القدر في رمضان، لقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي

(١) أما القائلون بأن «الليلة المباركة» هي ليلة النصف من شعبان، فليس لهم دليل يعوَّل عليه، من كتاب أو سنة، فإن صحَّ شيء عن رسول الله ﷺ فلا مزيد عليه وعلى الرأس والعين، وإلاَّ فالحقُّ ما عليه الجمهور أنها ليلة القدر، كما صرَّح به الكتاب العزيز، وأنها في شهر رمضان المبارك، والله أعلم.

ابتدأ فيه إنزاله، أو أنزل جملة إلى السماء الدنيا، من اللوح المحفوظ، ثم نزل به جبريل عليه السلام في وقت الحاجة إليه ﷺ، وصفها تعالى بالبركة، لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده، لكفى به بركة، وكفى لها شرفاً!! وأيضاً لما فيها لما من نزول الملائكة، والرحمة، وإجابة الدعوة، وفضيلة العبادة، وقسمة الأرزاق ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئناف مبين لما أنزلناه، أي لأن من شأننا الإنذار من العقاب.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ استئناف، لبيان فضل هذه الليلة، ففيها تُفصل الأمور المحكمة، والملتبسة بالحكمة، وهذا يدل على أنها ليلة القدر، ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم، من أرزاق العباد، وآجالهم، وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة. وفي الآية بيان لعظم القرآن بحسب ذاته، لأن تعالى أقسم به، ووصفه بكونه مبيناً، وبحسب شرف الوقت أنزله في ليلة مباركة، وبحسب شرف منزله، وهو رب العزة والجلال، لقوله تعالى: ﴿إنا كنا مرسلين﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي أعني أمراً حاصلاً من عندنا، على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الرسل لهداية البشر.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن، لأن من عادتنا إرسال الرسل إلى العباد، لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، فالأوامر الصادرة منه تعالى، من

باب الرحمة، فإن الغاية من تكليف العباد هو تربيتهم وتعريفهم للمنافع ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ يسمع أقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أي يعلم أحوالهم.

﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ ﴾ أي رب الكون كله، سمائه وأرضه ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم مريدين اليقين، فاعلموا أنه الله عزَّ وجلَّ.

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ إذ لا خالق سواه فهو المحيي المميت، خالق الخلق، ربُّ الأولين والآخرين.

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ ﴾أي غيرموقنين في إقرارهم ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ أي لا يقولون ما يقولون عن جدٍّ وإذعان، بل مخلوطاً بهزء ولعب.

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ أي فانتظر ﴿ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي يوم شدة ومجاعة، وذلك أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم، فقال: اللهم اشْدُد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فأخذتهم سَنَةٌ حتى أكلوا الجِيف، والعظام، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض مثل الدخان، وذلك قوله تعالى:

﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ أي يحيط بهم ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي قائلين ذلك، وهذا قول ابن عباس، وابن مسعود، وهو اختيار الفراء، والزجاج، وأكثر العلماء، وعن علي: هو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة، يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران.

روي أن أبا سفيان ونفراً معه، مَشَوْا إلى رسول الله ﷺ، وناشدوه الله والرحم، إنْ دعا لهم، وكشف الله عنهم العذاب، أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى حاكياً قولهم:

﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ ومن فسر الدخان من الأشراط، قالوا: تصوَّر المعذبون به من الكفار والمنافقين الدخان، فاستغاثوا وقالوا ربنا... إلخ.

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أي كيف يتذكرون ويوفون بما وعدوه من الإيمان، عند كشف العذاب عنهم؟ ﴿ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر، وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم منه، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبيَّن لهم مناهج الحقِّ، بإظهار آيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة.

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ عن ذلك الرسول، ولم يقنعوا بالتولي، ﴿ وَقَالُوا ﴾ في حقه ﷺ ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ قالوا تارة معلّم يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف،

وأخرى مجنون، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم، أن يتأثروا بالعِظة؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضَفَا، ـ أي تذلل ـ وإذا شبع طغى.

﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ، وما بينهما اعتراض، أي إنا نكشف العذاب المعهود عنكم، زماناً قليلاً، إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والفساد.

ومن فسر الدخان بأنه من أشراط الساعة قال: فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً، وحيثما يكشفه عنهم يرتدون، والأول هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم، فإن قوله تعالى ﴿أنى لهم الذكرى﴾ وقولهم ﴿معلَّم مجنون﴾ يؤيده، واحتج القائلون بالثاني، ببعض الأحاديث الشريفة منها: ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، ودابة الأرض، والدجال، وخويصة أحدكم، وأمر العامة»[1] أي قبل ظهور ست آيات وعلامات، وقوله «وخويصة أحدكم» أي ما يختص به الإنسان في نفسه أو أهله أو ماله، فيشغله، ويريد بأمر العامة القيامة الكبرى، وقيل الفتنة التي تعم الناس، واستدلوا أيضاً بما روي عن حذيفة بن أسَيد الغِفاري قال ﷺ: «إنها لن تقوم ـ أي الساعة ـ حتى تروا عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، ونار تخرج من اليمن[2]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس قد

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٧ في الفتن.
(٢) أخرجه مسلم في الفتن رقم ٢٩٠١.

مضين: اللِّزامُ، والرومُ، والبطشةُ، والقمرُ، والدخان»[1]. عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصّاً يقصُّ، ويزعم أن آية الدخان تجيء، فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منها كهيئة الزكام، فقال: يا أيها الناس اتقوا الله، من عَلِم منكم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم شيئاً فليقل: الله أعلم، إن رسول الله ﷺ لما دعا قريشاً فكذَّبوه، واستعصوا عليه، قال: اللهم أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سَنَة حَصّت[2] كلَّ شيء، حتى أكلوا الجلودَ، والميتة من الجوع، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان، فذلك قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبين﴾[3].

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم بدر ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ أي يومئذ ننتقم منهم أشد أنواع الانتقام.

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ أي امتحنا ﴿ قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ بإرسال موسى يعني عاملناهم معاملة المختبر، وأوقعناهم في الفتنة، بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ أي كريم على الله، وكريم في نفسه، لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من سَرَاة قومه وكرامهم.

﴿ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ٢/ ٥٧٤ في تفسير سورة الدخان.

(٢) أي أفنتْ وأكلت كل شيء.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٥٧٣.

﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ أي بأن أدوا إليَّ بني إسرائيل، أي سلموا إليَّ قومي كقوله تعالى: ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾[1] ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ قد ائتمنني الله تعالى على وحيه، وصدَّقني بالمعجزات.

﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي لا تتكبروا على الله تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله ﴿ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها، وهي معجزة العصا واليد.

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أي التجأت إليه، وتوكلت عليه ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ أي من أن ترجموني أي تقتلوني، قيل: لما قال: ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ توعَّدوه بالقتل، والمعنى: إني عائذ بربي من كيدكم وشرككم، فهو غير مبالٍ بما كانوا يتوعدونه به من الرجم.

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ أي فإن لم تؤمنوا لي فكفُّوا أذاكم عني، ولا تتعرضوا لي بشر وسوء، فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ ﴾ بعدما أصروا على تكذيبه ﴿ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ أي

---

(١) سورة طه، آية: ٤٧.

مصرُّون على الكفر والإجرام، فانتقم منهم، فإن قيل: الكفرُ أعظم من الجرم، فلِمَ قال ﴿مُّجْرِمُونَ﴾ ولم يقل كافرون؟ فالجواب: أن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وقد يكون مع كفره مجرماً، مرتكباً لأنواع الكبائر والجرائم، وهؤلاء جمعوا بين الكفر والإجرام، وسرعان ما كانت استجابة الدعاء!! قال تعالى آمراً له:

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ بإضمار القول، أي أجاب الله دعاءه، وأمره أن يخرج ببني إسرائيل بالليل، على غفلةٍ من العدو، لينجوا من شر فرعون وأتباعه ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وجنوده، بعدما علموا خروجكم.

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي سيغرقون في البحر، ولا يستطيعون النجاة.

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أي كثيراً تركوا بمصر ﴿مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بساتين وحدائق غناء، وعيون جارية بالماء.

﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي مزارع واسعة، فيها أنواع الخضرة والثمار، ومساكن ودور وقصور أنيقة.

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ أي تنعم، والنَّعمة بالفتح ما يتنعّم به الإنسانُ، وبالكسر من الإنعام ﴿ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ متنعمين، تفكّه بالشي أي تمتع به.

﴿ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ۖ ﴾ أي مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ قيل هم بنو إسرائيل، وقيل: غيرهم لأن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر[1].

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ أي فما حزن على فقدهم أحد، ولا تأثر بموتهم مخلوق، لأنهم فجرة أشقياء، وبكاء السماء كناية عن الحزن والتفجع عليهم، وفيه تهكم بهم، وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقدُه، فيقال: بكت عليه السماء والأرض، وقيل: بكاء السماء حقيقة؛ لما رُوي عن أنس رضي الله عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مؤمن إلاَّ وله بابان: بابٌ يصمد فيه عمله، وباب ينزل منه رزقُه، فإذا مات بكيا عليه، ثم تلا ﷺ ﴿فما بَكَتْ عَلَيهِمُ السَّمَاءُ والأَرضُ..﴾[2] الآية، وقيل: تقديره ما بكى عليهم أهل السماء والأرض.

---

(١) القول الأول هو الصحيح، أن الذين ورثوا ديار قوم فرعون هم بنو إسرائيل، لقوله تعالى في سورة الشعراء ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ فالنص صريح في أن الوارثين كانوا بني إسرائيل، والقول بأنهم لم يعودوا إلى مصر غير صحيح، وهي أخبار إسرائيلية.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٣٥٤.

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ أي من استعباد فرعون إياهم، وقتل أبنائهم.

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ ﴾ أي من عذاب فرعون ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا ﴾ أي متكبراً، جبَّاراً، ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مسرفاً في الشر والفساد.

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ بأنهم أحقاء بالاختيار ﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي عالم زمانهم.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ .كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، وغيرها ﴿ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ أي اختبار ظاهر، لننظر كيف يعملون؟.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴾ يعني كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على تماديهم في الإصرار على الضلالة، والتحذير من حلول مثل ما حلَّ بهم.

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي ما العاقبة إلا الموتة الأولى، المزيلة للحياة الدنيوية، وليست الموتة إلا هذه الموتة، دون التي تعقب حياة القبر، كما تزعمون، ثم صرَّحوا فقالوا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ أي بمبعوثين.

﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ ﴾ خطاب لمن وعدهم بالبعث بعد الموت ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ فيما تعدون به من قيام الساعة، فأحيوا لنا من مات من أجدادنا.

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾ ردٌّ لقولهم، وتهديد لهم، والمعنى: هل كفار قريش خيرٌ في القوة والمنعة ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو «تُبَّع الحِمْيري» وكان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمهم الله تعالى دونه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تسبُّوا تُبَّعاً فإنه كان قد أسلم»[1] سُمِّيَ تُبَّعاً لكثرة أتباعه، وقيل لملوك اليمن «التبابعة» لأنهم يتبع بعضهم بعضاً، كل ملك يتبع صاحبه الذي قبله، كما يسمى في الإسلام خليفة ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ والمراد منهم عاد وثمود، وأضرابهم من كل جبار عنيد ﴿ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۚ ﴾ بيان عاقبة أمرهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ تعليل لإهلاكهم حيث أهلكوا بسبب إجرامهم، مع ما كانوا في غاية القوة، فلأن يهلك هؤلاء أولى.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ أي للعبث واللهو.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند.

﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي هو الإيمان والطاعة، والبعث والجزاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الأمر كذلك.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ أي يوم القيامة لأن فيه فصل الحق عن الباطل، والفصل بين العباد ﴿ مِيقَٰتُهُمْ ﴾ أي وقت موعدهم للحساب ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي الأولين والآخرين، برهم وفاجرهم.

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى ﴾ أي لا يفيد ولا يدفع ﴿ مَوْلًى ﴾ أي ناصر وولي قرابة أو غيرها ﴿ عَن مَّوْلًى ﴾ أي عن أي قريبٍ له ﴿ شَيْـًٔا ﴾ قليلاً من الإغناء ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا يقدر على نصرته ولو كان قريبه، ولا ينفعه أيَّ نفعٍ، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿واتَّقُوا يَوْمَاً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئَاً﴾.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ بالعفو عنه، وقبول الشفاعة في حقه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الغالب الذي لا يُنصر من أراد تعذيبه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لمن أراد أن يرحمه من أهل الإيمان.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴾ أي الشجرة اللعينة التي تنبت في قعر جهنم.

﴿ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ أي كثير الآثام، والمراد به الكافر، لدلالة ما قبله وما بعده.

﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾ أي كالنحاس المذاب الذي انصهر واشتدت حرارته ﴿ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴾ أي يفور في بطون أهل النار، كغليان القدر بالطعام.

﴿ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ الماء إذا اشتد غليانه فهو حميم.

﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ خُذُوهُ ﴾ على إرادة القول، والخطاب للزبانية ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أي جرُّوه، والعتلُ: الأخذ بمجامع الشيء وجرُّه بقهر وعنف ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي وسطه.

﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ ﴾ أي ألقوا الماء الحار ﴿ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ أي فوق رأس ذلك الشقي الفاجر، من هذا الماء الحميم، الذي تناهت حرارته.

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ أي ويقال له على سبيل السخرية

والاستهزاء: ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرَّم، روي أن أبا جهل قال للرسول ﷺ: علامَ تهددني؟ ما بين بطاحها لا أعز ولا أكرم مني، فوالله لا تستطيع أنت ولا ربك، أن تفعلا بي شيئاً، فقتله الله يوم بدر وأذله، ويقال له في القيامة: ذق إنك أنت العزيز الكريم.

﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي العذاب ﴿ مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ أي تشكُّون فيه.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿ فِى مَقَامٍ ﴾ أي في مكان إقامة، وهي قصور الجنة ﴿ أَمِينٍ ﴾ يأمن صاحبه من الآفات، والانتقال عنه، والمسكن إنما يطيب بشرطين: ١ ـ أن يكون آمناً عن جميع ما يخاف.
٢ ـ وأن تكون أسباب النزهة فيه كاملة.

﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية، وهذا يدل على اشتماله على طيبات المآكل والمشارب.

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي من أنواع ملابس الحرير، الرقيق منه والسميك ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ في المجالس، ليستأنسوا بذلك. فإن قيل الجلوس على هذا الشكل موحش، لأن كل واحد منهم يطَّلع على ما يفعله الآخر، قلنا: أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا.

﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر كذلك ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي قرنَّاهم بزوجات من الحور العين، والحُورُ: جمع حوراء وهي البيضاء، والعِينُ جمع عيناءُ وهي عظيمة العينين.

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ﴾ أي يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من كل ما يسوؤهم، ويكدِّر صفوهم.

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ بل يستمرون على الحياة الأبدية ﴿ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ ﴾ التي ذاقوها في الدنيا ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي نجَّاهم الله من عذاب جهنم الفظيع.

﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ﴾ يعني كل ما وصل إليه المتقون، الخلاص من عذاب النار، والفوز بالجنة، إنما حصل لهم بفضل الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز وراءه، إذْ هو خلاصٌ من المكاره، ونيلٌ لكل المطالب، وذلك النعيم تكرمة من الله عزَّ وجلَّ لهم.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي إنا أنزلنا الكتاب المبين بلغتك، كي يفهمه قومك، ويتذكروا ويعملوا بموجبه.

﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ فانتظر يا محمد ما يحل بهم ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ إنهم ينتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون العاقبة، ولمن يكون النصر والظَّفَر؟ وفيه وعد للرسول ووعيد للمشركين، والله أعلم بمراده، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»

* * *

مكية وهي سبع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن منزل من رب العزة والجلال، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، لا كما زعم المشركون أنه من وضع محمد.

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وللكافرين، إلا أنه لما انتفع المؤمن دون الكافر، أضيف للمؤمنين، ونظيره ﴿هدى للمتقين﴾ فإنه هدى للكل، كما قال سبحانه ﴿هدى للناس﴾ نبّه تعالى على الآيات التكوينية، والأنفسية، والآفاقية، أما السماوات والأرض فإنهما منطويتان على فنون الآيات البديعة، من نجوم زاهرات، وشمس وقمر، والأرض وما فيها من جبال وبحار، وأنواع المخلوقات العجيبة، وأما الآيات في الأنفس فقد ذكرها في قوله:

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ أي من نطفة، ثم من علقة، متقلبة في أطوار مختلفة، إلى تمام الخلق ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي فيما ينشره ويفرّقه وينوعه، من دابة تدب على وجه الأرض ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ دلائل على الصانع المختار ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ إما تعاقبهما وإما اختلافهما طولاً وقصراً ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ أي من مطر، وهو سبب الرزق، عبَّر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتي القدرة، والرحمة ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع، والنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي بعد يبسها وعرائها عن آثار الحياة، ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ من جهة إلى جهة، ومن حال إلى حال، ولها منافع أخر، ومن جملتها سوق السفن في البحار ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وتنكير آيات في المواقع الثلاثة، للتفخيم كماً وكيفاً.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾ ملتبسة بالحق ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ ﴾ من الأحاديث ﴿ بَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أي بعد كتاب الله ﴿ وَءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي بعد آيات الله ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدّقون إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؟.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ أي كذاب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي كثير الآثام والجرائم.

﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ صفة أخرى لأفّاك ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي تقرأ عليه وهي في غاية البيان والوضوح ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أي يقيم على كفره، ويصر على طغيانه ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أي مستكبراً عن الإيمان، مستمراً على الطغيان، معجباً بما عنده من الأباطيل، نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري من أحاديث العجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية وردت بعبارة عامة، ناعية عليه، وعلى كل من يسير سيرة، هذا العمل المشين ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ ﴾ أي كأنه لم يسمعها، فخفف فحذف ضمير الشأن ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على إصراره واستكباره، والبشارة للتهكم.

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ﴾ أي إذا بلغه من آياتنا شيءٌ، وعلم أنه من آياتنا ﴿ ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ ﴾ أي الآيات كلها مهزوءاً بها، من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزء، ولم يقل اتخذه للإشعار بأنه خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى كل أفاك ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي عذاب شديد مؤلم، مع الذل والإهانة.

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ ﴾ أي من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أُعِدَّ لهم ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم ﴾ أي ولا يدفع عنهم ﴿ مَّا كَسَبُوا۟ ﴾ من الأموال والأولاد ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من عذاب الله ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ ﴾ أي ما عبدوا من الأصنام، وتوسيط حرف النفي مع أنَّ عدم الإغناء من الأصنام أظهر

مبنيٌّ على زعمهم، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادر قدره.

﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿هَٰذَا هُدًى ۖ﴾ أي القرآن الكريم في غاية الكمال من الهداية، كأنه نفسها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي من أشد أنواع العذاب، وتنوين العذاب في المواقع الثلاثة للتفخيم.

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأن جعله أملس السطح، يطفو عليه ما يتخلل كالأخشاب، ولا يمنع الغوص ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي لتسير فيه السفن بتدبيره وإذنه وأنتم راكبوها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة، والغوص، والصيد، وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الموجودات، بأن جعلها مداراً لمنافعكم ﴿مِنْهُ ۚ﴾ أي كائناً منه تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة وكثيرة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صنع الله تعالى.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ أي يعفوا ويصفحوا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾

أي عن الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعتقدون بحساب الله وجزائه، نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك أن مشركاً من بني غفار شتمه بمكة، فهمَّ عمر أن يبطش به، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يصفح عنه ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الآثام والإجرام، وبما كانوا يكسبون من قبيح الفعال.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ أي من فعل خيراً في هذه الحياة فنفعه لنفسه، ومن فعل شراً فضرره عائد عليها، لا يكاد يسري إلى غيره، وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح، وزجر عن العمل الباطل ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي مالك أموركم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي الحكمة وفصل الخصومات بين الناس ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ حيث كَثُر فيهم الأنبياء، بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين إشارة لفضلها على نعم الدنيا ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ كالمنّ والسلوى، وأنواع اللذائذ، والثمرات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالم زمانهم، فأمة محمد ﷺ أفضل الأمم بالنص القاطع ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي دلائل ظاهرة في أمر الدين ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ ﴾ في ذلك الأمر ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ بحقيقته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين، والمقصود أن يبيّن أن طريقة كفار مكة، كطريقة من تقدم في جحود النعم، والتكبر والعناد.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي أمر الدين ﴿ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ بإجراء أحكامها في نفسك، وفي غيرك، من غير إخلال بشيء منها ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم رؤساء قريش يقولون: ارجع إلى دين آبائك، وهذه آراء الجهلة النابعة من الشهوات.

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ ﴾ مما أراد بك إن اتبعتهم ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ ﴾ لا يواليهم إلا من كان مثلهم ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين أنت قدوتهم، فدُمْ على ما أنت عليه، وأعرض عما سواه بالكلية.

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي هذا القرآن نور وضياء، وهدى وشفاء، ورحمة لمن آمن به، واستمسك بهدايته.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ﴾ استئناف مسوق لتباين حال المسيئين، وحال المحسنين، إثر بيان حال الظالمين والمتقين، و «أم» منقطعة وما فيه من معنى «بل» للانتقال من بيان الأول إلى الثاني ﴿ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ الاجتراح الاكتساب، ومنه الجوارح ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾ أي نصيِّرهم في الحكم والاعتبار، وهم على ما هم عليه من مساوىء الأحوال ﴿ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾؟ وهم فيما هم من محاسن الأعمال، ونعاملهم معاملتهم في الكرامة؟ ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ ﴾ أي محيا الفريقين ومماتُهم؟ كلاَّ لا يستوون في شيء منهما، فإن هؤلاء في عز الإيمان والطاعة في المحيا، وفي رحمة الله ورضوانه في الممات، وأولئك في الكفر والمعاصي في الدنيا، وفي لعنة الله والعذاب في الممات، شتَّان بينهما، فلا يتساوى المؤمنون الأبرار مع الكفرة الفجار!! ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء حكمهم هذا، وظنهم الباطل، قال الكلبي: نزلت هذه الآية، في عتبة، وشيبة، والوليد، قالوا للمؤمنين: لو كان ما تقولون حقاً، لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، لأنَّا أفضل حالاً منكم في الدنيا!! فأنكر الله عليهم، وبيَّن أنه لا يمكن أن يتساوى المجرم مع المحسن، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُم كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2]؟.

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة السجدة، آية: ١٨.

(٢) سورة القلم، آية: ٣٥ ـ ٣٦.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالعدل والأمر الحقّ، فإن خلق الله لهما بالحق المقتضي للعدل، يقتضي تفضيل المحسن على المسيء، في المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم، وإذا لم يطّرد ذلك في المحيا، فهو بعد الممات حتماً ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على ما قبله، أي لأجل إظهار الحق، ولتجزى كل نفس بما فعلت في الدنيا، وهذا لا يتم إلا إذا حصل البعث ﴿وَهُمْ﴾ أي النفوس المدلول عليها كل نفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، وتسمية ذلك ظلماً، لبيان غاية تنزهه تعالى عنه.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؟ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنه عَبَده، أي أنظرت فرأيته فإن ذلك مما يقتضى منه العجب!! لأنه كان أحدهم يستحسن حجراً فيعبده، فإذا رأى أحسن منه رفضه وكسره، وعبد الآخر ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي خذله ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي عالماً سبحانه باختياره الضلالة، وتبديله لفطرة الله، التي فطر الناس عليها ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾؟ أي من بعد إضلاله إياه، بموجب تعاميه عن الهدى، وتماديه في الغي؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي ألا تلاحظون فتعتبرون وتتعظون؟.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يصيبنا الموت والحياة فيها،

وليس وراء ذلك حياة بعد موتنا، ولا بعث ولا نشور ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي إلاّ مرور الزمان، وتعاقب الأيام، وكانوا يزعمون أن المؤثر في هلاك الأنفس، مرور الزمان، وينكرون قبض الأرواح ويضيفون الحوادث إلى الدهر، وما نالهم من الشدائد إليه كذلك، ويسبون فاعلها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[1] أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي بما ذكر من إسناد الحياة والموت إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مستند إلى عقل، أو نقل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي قصارى أمرهم الظنّ والتقليدُ، من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به في الجملة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ آياتنا الناطقة بالحق، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ أي ما كان متمسكاً لهم شيء من الأشياء ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي إلا هذا القول الباطل، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة، وتسميته حجة لسوقهم إياه مساق الحجة، فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مُطلقاً.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد البعث ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ للجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في جمعكم، فإن من قَدَر على البدء، قَدَر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجزاء لا محالة، والإتيان بآبائهم حيث كان منافياً

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٩٩.

للحكمة التشريعية، امتنع إيقاعه في الحال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا يعلمون قدرة الله على الإماتة والإحياء، ولذلك ينكرون البعث والجزاء.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ بيان لاختصاص الملك والتصرف فيهما بالله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي الكافرون بالبعث، لأن الحياة والعقل والصحة رأس المال، والتصرف فيها لطلب السعادة الأبدية، والكفار قد اتعبوا أنفسهم في هذه الحياة، وما وجدوا منها إلا الخسران.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ﴾ أي باركة على الركب ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي إلى صحيفة أعمالها ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: اليوم تنالون جزاء أعمالكم، من خير أو شر!!.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ من تمام ما يقال لهم، وحيث كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله، أضيف إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه ﴿كِتَٰبُنَا﴾ وتهويلاً لأمره، ومن حيث اشتماله على أعمال كل أمة، أضيف إليها ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي يشهد عليكم ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي إنا كنا فيما قبل نستكتب الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في الدنيا من خير أو شر.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ أي يدخلهم في جنته التي هي مكان تنزل الرحمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإدخال في الرحمة ﴿ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي السعادة التي لا سعادة وراءها.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ كان همكم في الدنيا الإفسادُ والإجرام!؟.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما وعدكم من الأمور الآتية ﴿ حَقٌّ ﴾ واقع لا محالة ﴿ وَٱلسَّاعَةُ ﴾ التي هي أشهر ما وعد به ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في وقوعها ﴿ قُلْتُم ﴾ لغاية عتوكم ﴿ مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ هي، استغراباً لها ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي ما نعتقد بها إلا ظنّاً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ لإمكانه، ولعلَّ هؤلاء غير القائلين ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾.

﴿ ۞ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أي ظهر لهم حينئذ ﴿ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ على ما هي عليه، من الصورة المنكرة الهائلة، وعاينوا وخامة عاقبتها، أو جزاءها فإن جزاء السيئة سيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي جزاءه.

﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ أي نترككم في العذاب ترك المنسيّ ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي تركتم العمل له ولم تبالوا به ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ما لأحد منكم ناصر يخلصكم منها.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ﴾ أي هذا العذاب بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ مهزوءاً بها ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ من النار، والالتفات للاستهانة بهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي يرضوه، لفوات أوانه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ خاصة، إذِ الكلُّ منه نعمة، ودالة على كمال قدرته ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تكرير الرب للتأكيد، ولبيان أنَّ ربوبيته لكل منها بطريق الأصالة، ويوحي بالعظمة والجلال، فهو ربُّ الكائنات، وخالق الأرض السموات، الذي تفرَّد بالخلق والتدبير.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ لظهور آثارها فيهما ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يُغلب، والحكيم في كل ما قضى وقدَّر، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية»

* * *